



جوليات كلية الآداب



تصدر عن كلية الآداب - جامعة الكويت

الرسالة الرابعة عشرة: في التاريخ

القدامة السليمانية



د. شاكور مصطفى
قسم التاريخ - جامعة الكويت

١٤٠٢ - ١٩٨٢

الحوالية الشاشة



ANNALS OF THE FACULTY OF ARTS



Issued by the Faculty of Arts, Kuwait University

FOURTEENTH MONOGRAPH (HISTORY)

THE "QUDAMAS"
AND "AS-SALIHYYA"

Dr. SHAKER A. MOUSTAFA
Department of History - Kuwait University

Volume No. 3, 1982

جميع الرسائل الخاصة بشروط التزاوج استفسارات أخرى بشأن الحيوانات، نوجه إلى رئيس هيئة تحرير الحيوانات - ص. ب. ٢١٥٥٥ المصفاة - الكويت

الرسالة الرابعة عشرة

الْقَلَامُ وَالْحَيَاةُ

أ.د. شياكي مصطفى
مقيم التأليف - جامعة الكويت

حواشي كتيبة الآداب - الحولية الثالثة - ١٩٨٢ - ١٩٨٠

١٩٩١
١٩٩٠
١٩٩٠

محتوى البحث

٧	مؤخر.....
٩	١- آل قدامة الحبايلة والهجرة إلى دمشق
١٨	٢- المقادسة ونشأة الصالحية
٢٥	٣- ظهور آل قدامة وتوسع الصالحية
٤٠	٤- الصالحية في العصر المملوكي
٥٢	٥- آل قدامة والصالحية المملوكية
٧٥	٦- مدارس آل قدامة ورجال الأسرة
٧٦	أولاً - المدرسة العمرية
٨٥	ثانياً - المدرسة الضيائية (دار الحديث الضيائية المحمدية)
٨٨	ثالثاً - المدارس الحنبلية الأخرى بالصالحية
٨٩	رابعاً - شيوخ المقادسة
٩٥	نحو التلخيص والتقويم
٩٩	ملاحق البحث
١٠١	(١) الجداول
١٠١	الجدول الأول : آل الشيخ أحمد
١٠٢	الجدول الثاني: آل عبد الهادي
١٠٣	الجدول الثالث: آل عبد الواحد السعدي
١٠٤	الجدول الرابع: آل سرور
١٠٥	(٢) الخرائط

المؤلف :

١. د. شاكرو مصطفى

- دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة جنيف ١٩٧١.
- استاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الكويت.

من انتاجه العلمي :

- ٢١ مؤلفاً في الأدب والتاريخ منها:
 - التاريخ العربي والفرخون.
 - دولة بني العباس.
 - المؤرخون في العهد السلجوقي والأيوبي.
- ١٢٥ بحثاً ومقالة منها في التاريخ :
 - طغتكين أول الأتابكة.
 - الحركات الشعبية في دمشق بين القرنين الرابع والسادس للهجرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آثار وأثر الصالحية

مؤخر

آل قدامة أسرة فلسطينية الأصل. دمشق المهر ولشاشات جنسية المذهب تركت أثرها الواضح في تاريخ الفكر الاسلامي ورجاله في العصر المملوكي سواء بكثرة من ظهر فيها من العلماء أو باستمرار نشاطها العلمي الذي امتد عدة قرون ما بين أواسط السادس الهجري وحتى أوائل القرن العاشر.

قام نشاط هذه الأسرة في بقعة عجاورة لدمشق حملت اسم (الصالحية) بنى فيها آل قدامة البيوت والمدارس الأولى ولم تلبث أن أصبحت هذه البقعة بلدة صغيرة ثم بلدا واسعا للعلم والعلماء في العصر المملوكي حوى عشرات المدارس وعشرات المساجد والازوايا والخانات والتكايا وسكنه وبرز فيه كما قدم اليه المئات من العلماء بجانب ما قام فيه من النشاط الاقتصادية والاجتماعية. وكان ظهور الصالحية حدثا هاما في تطور دمشق الممراني والديروغرافي والاقتصادي بجانب شأنه العلمي.

وإذا عرف التاريخ الاسلامي عددا كبيرا من الأسر العلمية فإن أسرة آل قدامة تكون في طبيعتها بعدد وشهرة من أخرجت (هي والأسرة المتصلة بها) من العلماء الذين يزدون على ١١٥ في الممد بين رجال ونساء على امتداد ثلاثة قرون ونصف القرن.

وإذا عرف التاريخ الاسلامي انشاء العشرات من المدن، وقد أحصى بعض الباحثين منها ثلاثمائة مدينة في أنحاء الأرض الاسلامية، فلا يكاد يوجد بينها مدينة واحدة أقمها العلماء وتخصصت بالعلم في الدرجة الأولى سوى (الصالحية). ولم يدرس تاريخ تلك الأسرة آل قدامة بشكل متكامل، وإن حملت كتب التراجم الكثير من أخبار رجالها، ولا درس تاريخ الصالحية دراسة تكميلية حديثة وأن كتب محمد بن طولون ثديا تاريخا مواقعها ورجالها في كتاب طبع قبل ٣٣ سنة في دمشق بعنوان (القلند) الجهرية في تاريخ الصالحية) وكتب قبله ابن عبدالمهدي كتابا ضاح فلبينا منه المختصر الذي اختصره محمد بن عيسى بن كنان باسم المروج السندسية الفسحة (أو الفيحية) في تاريخ الصالحية وقد طبع بدوره في دمشق سنة ١٩٤٧.

وهذا البحث محاولة لدراسة هذه الظاهرة الفريدة التي ارتبط فيها وماتن تاريخ أسرة علم مع تاريخ بلدة علم مدة تقرب من أربعة قرون، وكونا جانباً من تاريخ الفكر العربي الاسلامي في الشام خلال العصر المملوكي.

١٠٨	الصور (٣)
١١٣	المراجع العربية
١١٣	المراجع الأجنبية
١١٦	المؤخر بالانجليزية
١١٨	

مصادر البحث

١) آل قدامة الحنابلة والهجرة الى دمشق :

في الثالث الأخير من القرن الخامس للهجرة / الحادى عشر الميلادى تحولت القدس (ومعظم فلسطين معها) بين عدد من الأيدي الحاكمة التباينة فقد كانت حتى شوال سنة ٤٦٥ / ١٠٧٢م في أيدي الفاطميين (الشيعة السنية) وخليفتهم المستنصر في القاهرة فاحتفظها منهم مفاخر تركى هو أنسر بن أوق الخوارزمى الذي ما لبث أن أعلن ولائه لبغداد العباسية (السنية) وللسلطان السلجوقى ملكشاه وأقام لها الخطبة في القدس وجنوبي الشام. ثم ما لبث أن وقعت مملكة أنسر في يد تنش بن ألب أرسلان (شقيق السلطان السلجوقى ملك شاه) الذي أقطع القدس بعد ذلك الى زعيم كبير من زعماء الترك الغز هو أرتق بك وقد توفى أرتق بك سنة ٤٨٤ / ١٠٩١م فصارت المدينة لولديه سقمان وأيلغازى ولكن الفاطميين انتهزوا فرصة وصول الصليبيين الى الشام فهاجوا القدس واحتلوها (شعبان - رمضان سنة ٤٩١) ولكنهم لم يبقوا فيها سوى أقل من سنة ريثما وصل الصليبيون من انطاكية الى فلسطين واحتلوا القدس في المذبة المشهورة (٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ / ١٥ توز (يوليو) سنة ١٠٩٩) وصارت فلسطين (مع الساحل الشامى) بالتدريج في أيديهم .

عرفت القدس في الفترة التي امتدت ما بين عودتها الى الولاة العباسى ثم السلجوقى السنى وبين سقوطها في أيدي الصليبيين (وهي ٢٧ سنة) مرحلة من النشاط الفكرى لم تعرفها في تاريخها السابق. فقد كان خلالها من أيدي الفاطميين وهي ثالث الحرمين رنة فوح واسعة في المشرق الاسلامى (السنى) وفي المغرب الاسلامى (السنى أيضا) وهرع اليها العلماء من الطرفين فيما يشبه أن يكون محاولة لازالة مآقد يكون قد علق فيها من المذهب الفاطمى الذي استمر بسود فلسطين رسميا أكثر من مائة سنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَادِمَةُ الْخَبِيرَةُ

اعتباراً من أواسط القرن السادس الهجرى (الثاني عشر الميلادى) بدأت تبرز في دمشق أسرة علمية عرفت بآل قدامة أو القادسة اتخذت سكناً لها بقعة جرداء في سفح (قاسيون) الجبل المطل على دمشق فما لبثت هذه البقعة أن صارت نجما سكانيا عرف باسم الصالحية. (١)

وتنفرد الأسرة القدامية باستمرار ظهور العلماء منها عدة قرون كما تنفرد الصالحية بأنها البلد الوحيد في الاسلام الذي نشأ لاهل أنه مركز سياسى أو اقتصادى أو عسكري (على ما نعرف من نشأة البلاد) ولكن على أنه مركز علمى. وتترابط نشأة ذلك البلد وقوه وشهرته مع نشأة تلك الأسرة وقوه وشهرتها حتى أواخر العهد المملوكى.

فمن هم آل قدامة؟ وما حكاية الصالحية معهم وحكايتهم معها؟

(١) بقيت هذه المنطقة ضاحية من ضواحي دمشق امامة حتى مطلع هذا القرن ثم ما لبثت أن انفصلت عنها بالتدريج حتى أصبحت اليوم أحد أحياء دمشق الواسعة الكثيفة السكان.

من بعد يعتقدون أنهم ماوصلوا الى ماوصلوه من الخير الا ببركة هذا الدعاء (٣).

وجاء الاحتلال الصليبي سنة ٤٩٢ ليخيق بضرورة دموية واحدة كل تلك الحركة العلمية و يستحق سحتا. ويكفي أن نعلم أن الفرنجة قتلوا يوم احتلال القدس وذبحوا ضمن السبعين ألفا من القتل ثلاثة آلاف مابين عابد وعالم ذكر وانثى ومعتكف مشهور الحالة ومذكور بالديانة وفيها قتلت «الملكة الشيرازية بقية السلسلة في جلاء النساء» (٤).

وأقام الفرنجة مملكة القدس الصليبية والامارات الأخرى. واقسموا المناطق المحتلة اقطاعات على الطريقة الغربية بين الأمراء والفرسان. وإذا كانت مذابحهم قد تناولت المدن الكبيرة فانهم أبوا على السكان المدنيين الباقين لاستخدامهم ولم يسموا الفلاحين المسلمين في القرى، لأنهم مورد الرزق وقد فرضوا عليهم الجزية وقيود الإقامة الاجبارية في محاولة لتحويلهم الى نوع من عبيد الأرض.

وإذا ظهرت بعض ملامح المقاومة لدى السكان في المناطق الجبلية النبلسية على شكل عصابات «حرامية تكبس الضياع» وتنهجها أو على شكل تصيد فردى للحجاج في المدن يحاولون عليهم في البيت ويقتلونهم (٥) فان بقايا الجذوة العلمية كانت بدورها تبص تحت الرماد وتشكل نوعا آخر من أنواع المقاومة للسيطرة الفرنجية وكانت تتمثل في خطباء الجوامع الذين كان بعضهم يرحل الى الشام أو الى مصر لطلب القراءة والحديث وللدراسة الدينية. وقد اشتهر محمد بن قدامة ثم ابنه أحمد وحفيده محمد أبو عمر خطباء جامعيل بالتقوى والعلم

(٣) ابن رجب الحنبلي - ذيل طبقات الحنابلة (ط. حامد القوي - القاهرة سنة ١٩٥٢) ج ١ ص ٧١ وموف شيراليه فيما بعد باسم ابن رجب فقط.

(٤) ابن العربي - المراسم في القواصم (تحقيق الطالبي - الجزائر ١٩٧٤) ٢/ ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٥) انظر في هذا أسامة بن منقذ - الاعتبار (ط. فليب حتى. برنستون ١٩٣٠) ص ١٣٨ و ١٣٩.

وهكذا دبّت في القدس ومدن فلسطين الأخرى (مثل نابلس وعسقلان

وعكا) دورة من النشاط العلمي الواسع. فتأسست في القدس مدارس للمذهبتين الشافعي والحنفي. وانتشرت حلقات المناظرة والدرس بين علماء المذاهب المختلفة بما في ذلك الحنابلة والكرامية والمعتزلة. وكان بعض العلماء يقصد الساحل مابين عسقلان حتى عكا وحتى طرابلس (وكان الساحل يتبع الفاطميين سياسيا وفي المذهب الرسمي) لمناظرة علماء المذهب الفاطمي في تلك البلدان، وبرز في هذه الفترة عدد من العلماء المحليين (كابن الروملي) الحافظ الذي أسره الصليبيون ثم قتلوه سنة ٤٩٢ وأبي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠) بجانب عدد من العلماء العراقيين من العراق وخراسان (كأبي سعيد الزنجاني والامام الصاغاني والزوزني وغيرهم) والوافدين من المغرب (كأبي بكر الطرطوشي وابن العربي الاشيلي) ولعل أعمق هؤلاء جميعا في الأثر هو أبو الفرج عبدالواحد بن محمد الشيرازي الحنبلي الذي ترك بغداد ومنازعاتها الدموية الحادة بين المذاهب وجاء فسكن القدس سنين طويلة ونشر فيها وفيما حولها مذهب الامام ابن حنبل بما توافد عليه من طالبى العلم وماسب اليه من الكرامات حتى تشكلت بتأثيره كتلة حنبلية واضحة تقلت النزاع مابين الأشاعرة والحنابلة من بغداد الى فلسطين. وصار لها الاتباع من المريدن والعامة قبل أن ينتقل الى دمشق ويتوفى فيها (سنة ٤٨٦). وكان بين الذين قدموا على الشيرازي في القدس وحلوا المذهب الحنبلي عنه شيخ قروي يدعى قدامة بن مقدم بن نصر عبدالله، جاءه مع أخيه من قرية جعاعيل (٢) وسأله أن يدعو له بأن يرزقه الله حفظ القرآن. وقد ظل بنو قدامة أمة

(٢) تقع قرية جامعيل على بعد ١٦ كم من جنوب غربي نابلس وهي واحدة من مجموعة قوى تتوزع بين السفوح والوديان هناك وتقاير ثلاثين قرية عدا جامعيل: مردا، زيباء، ياسوف وسلفت... وبلفظ الاسم يفتح الجيم وتشديد الميم واللام في الآخر (راجع باقوت ١١٣٢) وهو اسم قديم آرامي الأصل في الغالب، ولعله - فيما أرجح - يتكون من كلمتي (جدة - ابل) الآراميتين وجة تنمى بتر أو نبع والى هي الاله بمعنى نبع أو بئر الاله - وأهل البلاد يسمون الاسم اليوم في اللغات الى جامعيل باليونان ويسمونه - كما ورد لدى مصطفي مراد الداغ في كتابه - بلادنا فلسطين (ج ٢ ص ٤٦٥) - بأنه أعطى للبلد بسبب كثرة من ظهر فيها من جامعي العلم وهو تفسير ساذج لأن الاسم أقدم بكثير من ظهور العلماء الجامعيين هؤلاء لم يظهر الا بعد القرن السادس للهجرة.

وتنبهه الفرنسي لششاطات الشيخ أحمد وقيل له: «ان هذا الرجل الفقيه يشغل الفلاحين عن العمل ويجمعون عنده. فتحدث في قتله» (١٠) وثنا الجبر الى الشيخ عن طريق رجل تسميه المصار (ابن تسيب) وكان كاتب باليان ووزيره (مساعدته) وكان يعتقد في مشايخ المسلمين ويكمن اليهم (١١). فقرر الشيخ أحمد الحرب الى دمشق حيث كان قد درس العلم على حنا بلانها بني الشيرازي الحنبل.

لم يكن اختياره لدمشق ناجا فقط عن أنه درس فيها وعن أنها أقرب بلد اسلامي الى بلده وعن أن العلاقات التجارية والاجتماعية كانت دوما قائمة وقوية بين نابلس ودمشق من خلال الطريق التجاري الذي يربطهما باستمرار ولكن كان ثمة سبب آخر يجذب الشيخ أحمد الجماعلي الى دمشق ويفتح لضيقة بالحكم الفرنسي باب الأمل هو أن هذا البلد قد انقلب بعد طول استخذاء امام الفرنجة وطول معالاة وبعد دفعه الجزية لم أيام معين الدين أرثم أيام الملك مجير الدين أبق (آخر رجال الأسرة الطغتكينية) فقد وقع منذ سنة ١١٥٤/٥٤٩م بيد نور الدين بن زنكي الذي أخرج منه الملك المستنزي ووجد ما بينه وبين حلب في جبهة واحدة بينما كانت سمعته بالتقى والجهاد معا تهد له السبيل الى الزعامة السياسية الكبرى وتجعل منه في الخواطر بطل الاسلام المنتظر وبطل التحرير.

بالغابت أن يحكم نابلس وريفها الا ان كان ملحقه باقطاع زوجته. وعلى أي حال فقد مات قبل سنة ١١٥٥/١١٥٠هـ (أي قبل هجرة آل قدامة بستين). أما صاحبة نابلس منذ سنة ١١٥٢/٥٤٧ فهي الملكة ميليتند. وأما باليان صاحب نابلس فهو باليان الثاني (الذي تدعوه المصادر الإسلامية أيضا وأنظر أيا شامه والغنيح القسي - باسم باليان بن بارزان) وقد آلت اليه إمارة نابلس منذ سنة ١١٦٨ أي بعد سنة ١١٣٥هـ وهو الذي شارك في حطين ثم قام بغارة صلاح الدين لتسليم القدس من بعد. ويبدو بوضوح أن المصادر الإسلامية تفرج ما بين الشخصيتين كما تحسب أن الثاني هو الأول نفسه. وربما كانت شهرة الشاطي وحكمة لنابلس هو الذي جعل الروايات تحسبه الاقطاعي نفسه الذي كان سببا في هجرة آل قدامة.

(١٠) القلائد ١/٢٧

(١١) المصدر نفسه و يلاحظ أن النص يخطئ بين اسمي باليان وبلدون (يقودون).
ونظر حول دراسة الشيخ أحمد في دمشق: المروج ص ٣

وقوة التأثير على الناس فكان أن أهل القرى الجماعيلية يهرعون الى سماع خطبهم أيام الجمع. وكانت هذه الاجتماعات مجال لقاعات دراسية لأهل تلك القرى تجرى فيها تلاوة القرآن وحفظ الحديث... (١).

ويبدو أن مقاومة آل قدامة الدينية للفرجة تثلت - بدافع من حنبلتهم - في المزيد من التمسك بالايان والورع والتقوى ولم يكن الشيخ يخفي مشاعره ضد «الكفار» المحتلين وكان يحرض الفلاحين على الانصراف للدين وترك العمل للفرجة في الأرض (٧) وكانت أقواله تلقى الصدى لدى أهل القرى الذين كانوا يمانون الكثير من ظلم الاقطاعيين ونعسفهم وانفق أن صاحب اقطاع «الجماعليات» النابلسية في أواسط القرن السادس الهجري كان من الاقطاعيين المعتاة وكان يتقاضي الفلاحين أربعة أضعاف الجزية التي يأخذها غيره. وكان يؤذي الناس فيها أبشع الأذى ويعاقبهم عليها بالحبس وقطع الأرجل (٨)...

والنصوص الإسلامية تسمى هذا الاقطاعي الفرنسي باليان بن بارزان (٩) ولعل في هذه التسمية خطأ.

(٩) ابن طبرون - القلائد الجهرية في تاريخ الملاحية (تحقيق دهمان - دمشق ١٩٤٩) ج ١ ص ٢٧ وسوف نشير اليه من بعد باسم القلائد.

(٧) المصدر ذاته وابن كنان - المروج الفسيحة (تحقيق دهمان - دمشق سنة ١٩٤٧) ص ٣ وسوف نشير اليه باسم: المروج.

(٨) المصدران ذاتهما.

(٩) انظر المصدر السابق نفسه وأيا شامة - الروافدين (٧٧/٩٥) والأكسن الجليل (٣٣٨/١) - ط. المحاسب - عمان ١٩٧٣) الفتح القسي (ط. صبح ص ١١٧/١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٧). وليس في الحكام الفرنجة المعروفين في أواسط القرن السادس الهجري / ١١٢٧م من يحمل مثل هذا الاسم (ابن بارزان) فلما أن يكون مجرد موظف لجميع المال غير مذكوره، ولما أن يكون الرجل المعنى هو باليان شارتر صاحب بيني وأرسوف و يافا و يبرف باسم باليان الأول أو الفرنسي أو المعجز مؤسس الأسرة الاقطاعية بلبين بين التي أضحت أشهر أسرة رستقراطية في الشرق الافريقي وزوجته كانت صاحبة الرملة. وليس

ولكن هذا المسكر لم يلبث بالهاربين الذين نجوا أيضا من قطاع الطريق بالصدقة ووصلوا دمشق في ثمانية أيام يقودهم أبو عمر محمد بن الشيخ أحمد. وثاقهم الشيخ فائز لهم في مسجد أبي صالح ..

وهذا مسجد قديم الانشاء وكان موقعه في ظاهر الباب الشرقي خارج دمشق وفيه بئر وله أوقاف. أقام فيه من قبل جماعة من الصالحين ومنهم الزاهد أبو بكر بن سند حدوده بالدمشق ثم خلفه فيه أبو صالح مفلح بن عبد الله الخليلي الذي توفي سنة ٥٣٠ ونسبت اليه عدد من الكرامات أو المناقب كما أعطى اسمه للمسجد. (١٥)

ونزل المهاجرون من جاعيل في هذا المسجد ولم ينتسبوا أمام الدماشقة الى قريتهم ولكن الى بيت المقدس لأنها الأشهر والأقدس في أذهان الناس . وللسبب نفسه ولأن ظاهرة الانساب القبلية كانت قد اضمحلت في المجتمعات الاسلامية لم يصروا على حل نسب آل قدامة. وتوالى ورود المهاجرين من الجماعيات الى دمشق تباعا بعد ذلك من بقايا الأسرة القدامية وأقرائها (١٦) . وبينما كانوا يتكاثرون في العدد وتتعمد وتصعب في الوقت نفسه مهمة معاشهم ومقامهم، كانت مصاعب من نوع آخر تلاقيهم لتزيد في يؤس هجرتهم :

(١٥) انظر ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق. ١. (ط. المجلد / دمشق ١٩٥٥) ج ٢ قسم ١ ص ٨١ وانظر ابن شداد الأعلام الطيرة (ج: دمشق تحقيق الدهان ط. دمشق ١٩٦٩ - ١٣٧٠ والقلاند ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٧ والنسبتي الدارس في تاريخ المدارس (تحقيق الحسني - ط. دمشق ١٩٦٩) ج ١ وابن عبد الهادي (مدار القامد - طلس / دمشق سنة ١٩٤٣) ص ١٠٨ .

وقد ذكر ابن طويرقي في القلائد أن لابي صالح ترجمة في السير للذهبي بين وفيات سنة ٥٣٠ وليس في المطبع هذه الترجمة ولعلها سقطت. فهي بما يستدرك على النسخة المطبوعة (تحقيق المجلد - طبع الكويت سنة ١٩٦٣).

(١٦) يفصل صاحب القلائد الجهرية اسماء ونوايا وصول هؤلاء بعضهم بعد بعض (ج ١ ص ٣١ - ٣٣) كما يذكر موتاهم تفصيلا.

ولم تكن طرق السفر آمنة بين مملكة الفرنجة ومملكة دمشق فعليها قطاع الطرق في الغور وعلى نهر الشريعة وعليها جند فرنجي يقبضون على من يعرب من الفلاحين. ولذا مضى الشيخ أحمد مع ثلاثة من أهله (بن أخيه محمد بن أبي بكر، وابن أخيه عبد الواحد بن أحمد وزوج أخته الأخرى عبد الواحد بن علي بن سروس) في رجب سنة ٥٥١ هـ - ايلول سنة ١١٥٦ (فوصل دمشق). ولا شك أنه اتصل بجماعة الجبابلة فيها وآانس إمكان الاستقرار هناك و يبدو أن بني الخليل شيخ الجبابلة في دمشق وعدوه بالسماح له ولأهله أن ينزلوا في مسجد بظاهر دمشق يعرف بمسجد أبي صالح، وكان مع أوقافه تحت تصرفهم، فقرر الشيخ البقاء نهائيا في دمشق وكتب مع أقربائه الذين أوصلوه الى ابنه أبي عمر محمد يطلب منه اللحاق به وأنه «ما بقي يرجع الى تحت أيدي الكفار أبداً ويقول: ما أقول الا كما قال ابراهيم عليه السلام فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم» (١٢)

ولم يكن بإمكان الأسرة الرحيل بحرية الى دمشق لأنها مرتبطة بالأرض وبالجزيرة الفرنجية الجماعية على القرية. لذلك اختفى الجماعة التي رجعت الى جاعيل عن أهل القرية والقرى المجاورة لئلا يعلموا بسفرهم.

ولكن الأمر شاع حين خرج من مجموعة قري جاعيل وياسوف ودير عوريف والساويرا ومردا وغيرها ما مجموعه خمسة وثلاثون نفسا من ذكر وأُنثى وكبير وصغير (١٣) هم جبهة آل قدامة ومعهم بعض الألداء (شوال سنة ٥٥١ / تشرين الثاني - كانون الأول سنة ١١٥٦).

وحاول أهل القرية منعهم فلما لم يقدروا أعلموا بهم الكفار حتى ينعوهم فمضى عسكري نابلس فقتلوا لهم على الشريعة حتى يأخذوهم. (١٤)

(١٢) القلائد ج ١ ص ٢٨.

(١٣) المصدر ذاته ج ١ ص ٢٩، ٣٠ وهناك تفصيل اسمائهم...

(١٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨.

وقد كان ذلك. ونجح المقادسة في الأمرين: فقد اجتذبوا الناس بالتقى والتدين الى مسجدهم فكانوا يزورهم تلاوة القرآن وقراءة السبع (الذي كان أهمل بالمسجد) وسماع دروس الدين. وبلغ من حسن شهرتهم أن زارهم في مسجد أبي صالح الشيخ أبو سعد عبد الله ابن أبي عمرو، قاضي القضاة لدى نور الدين (المتوفى سنة ٥٨٥/١١٨٩) وكبير فقهاء الشافعية في عصره والذي بنى له نور الدين كما بنى هو نفسه عددا من المدارس باسمه في حلب وحماه وحص وبعليك ودمشق (٢١)

وخاف بنو الحنبل على وقفهم أن يأخذ هؤلاء الوافدون وجاعوا يقولون لهم: «ما نخليكم في المسجد حتى نكتبوا خطوطكم أنكم من تحت أيدينا وأنكم نزلتم علينا فعملوا. (٢٢)

ورأى شيخ المقادسة أن من المجاملة العلية أن يردوا الزيارة لابن أبي عمرو فمشي اثنان منهم (أبو محمد الموفق وأخوه الحافظ عبد النبي) وحفظوا عليه مسألة من مسائل الخلاف في الفقه. وإذا كانت هذه الخطوة قد سرت القاضي فقد أثارت ثائرة آل الحنبل فراحوا يشتمون عليهم بأنهم أصبحوا أشاعرة. وإذا علمنا مبلغ الخصومة الحنبلية الأشعرية في بغداد وأن الحنابلة يكفرون الأشعرية عرفنا خطر التهمة التي تعرض لها الشيخان المقدسيان اللذان انقطعا لذلك عن درس ابن أبي عمرو حتى افتقدها....

وأراد آل الحنبل استغلال الفرصة لإخراج الجماعة من المسجد بحجة

(٢١) تراجم ابن أبي عمرو مبدولة في كتب التراجم (وانظر مثلا شذرات الذهب لابن الحنبل ج ٤ ص ٢٨٣) وقد عاش ٩٣ أو ٩٥ سنة.

(٢٢) القلائد ص ٣٦.

أ- المصاعب الصحفية فقد كانت الظروف الصحفية التي يعيشون فيها ضمن الجامع سيئة. وقد ذكروا أن الموقع «استرخ عليهم»، وهو موقع سهل رطب على حافة الغوطة وأصابهم فيه الأمراض. والواقع أن سوء التغذية، والبرد القاسي في شتاء دمشق والذي لم يكن يكفى لدفع عنهم وعن صغارهم ما يجتمع له أبو القاسم الصوري من صدقات الجباب والقياب (١٧)، بالإضافة إلى قلة الأعمال والموارد المعاشية بالنسبة لجماعة قروية تعودت العمل الزراعي الجبل كل ذلك قد أسهم في تهديم المناعة الصحية للجماعة حتى مات منها في أواخر السنوات الثلاث الأولى لقامها ثمانية وعشرون نفسا (١٨) وحتى قام بعض أفراد الأسرة فهرب ببعض أطفالها من الوباء المرضي إلى بلدة داريا في الغوطة. وضاق صدر الشيخ أحمد، شيخ الجماعة، بهذا المكان واشتهى أن ينتقل إلى موضع غيره (١٩).

ب- المصاعب المذهبية فقد كان الغالب على أهل دمشق هو المذهب الشافعي وقد انتشر معه وخاصة منذ نزول السلاجقة بالشام (حوالي سنة ٤٦٠) المذهب الحنفي. أما المذهب الحنبل فقد كان محدود الانتشار ومع أن الشيخ أبا الفرج الشيرازي الذي نشره في فلسطين ورد دمشق وتوفى بها ودعم انتشاره فيها إلا أن الناس لم يقبلوا عليه. وكانت رئاسة المذهب فيها لأسرته: بنو الحنبل وبنو الميخا. ولم يكن في دمشق سوى مدرسة حنبلية واحدة قاسي آل الحنبل الكثير في بنائها (٢٠) بسبب مقاومة الشوافع لهم.. وهكذا كان من الصعب أن يقبل هؤلاء المقادسة في دمشق إلا أن يطلي تقاهم وعلاقتهم العلية مع كبارها على حنبلتهم..

(١٧) القلائد ج ١ ص ٣٦.

(١٨) القلائد ج ١ ص ٣٤ و ص ٣٧.

(١٩) المصدر نفسه ص ٣٧. والمروج ص ٥.

(٢٠) الدارس ج ٢ ص ٦٥.

أضحت العاصمة السياسية والعسكرية للقوى الإسلامية في الشرق الإسلامي ونجم عن ذلك وعن سمعة نور الدين في التقوى والجهاد أنها أخذت تجذب الجنود والخطوة اجتذابها للعلماء والفقهاء، وتحركت الدورة الاقتصادية فيها ونشطت الحركة العلمية مع النمو الديموغرافي وظهرت في أطرافها خارج السور في الشمال والجنوب البري طلائع أحياء سكانية هامة.

لذلك كان من الصعب أن يفكر القادسية بالاستقرار في المناطق الملاصقة لدمشق، أو في غوطتها لأن أراضيها مملوكة لأهل دمشق ولا يملك القادسية، مع فقرهم، أنماطها، وطاف أبو عمر ابن الشيخ أحمد وصهره في سواد (الغوطة) ببهران موضعاً (مناسيباً) ولعلهما كانا يبحثان عن أرض تعيش عليها هذه الجماعة القروية الزراعية. وأبعداً في الطلب حتى أطراف حوران حيث دهم أحد هدا غارة فرنجية فهرب إلى أرض اللجاة من الحوف (٢٤)٠٠ ثم عاد الأثنان مخففين.. وأخيراً أتجهت انظار القادسية، مرغمين على ما يظهر، إلى سفح قاسيون المطل على دمشق من الشمال، على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريباً من أسوارها.

وهذا السفح أرض واسعة منحدرية يرثها يزيد (أحد فروع بردى) عند ذيولها الأخيرة تشارك البساتين والخصرة إلى الجنوب والأرض القاحلة على سفح الجبل المساعد حتى القمة. ولم تكن هذه الأرض زراعية وإن كان بعض أهل البساتين المجاورة يزرعون على ماء المطر بعض جوانبها بالحبوب. ولكنها كانت أرضاً خلاء يقبر فيها بعض الفقراء موتاهم لأنهم لا يملكون ثمن القبور في المقابر الطيفة بدمشق.

وكان أهل دمشق إلى ذلك ينسبون إلى هذا السفح بعض البركة

أنهم صاروا أشاعرة شافعية والمسجد وقف للحنابلة واستعدوا عليهم السلطات ولكن شهادة ابن أبي عمرون وبعض رجال الحاشية لدى نور الدين بتقوى هذه الجماعة كانت كافية لكي يكتب نور الدين للمقادسة كتاباً رسمياً يتحول إلى الوقف اليهم.. وجاء ابن أبي عمرون اليهم يحمل بنفسه الكتاب و يسلم المسجد والوقف..

وفرح القادسية لا الشيخ أحمد كبيرهم الذي ضاق صدره وقال: أنا هاجرت حتى أناق الناس على دينهم؟ ما بقيت أريد أن أسكنها هنا!! (٢٣) وزاد في ضيقه — على ما يبدو — تشيع بني الحنبل عليه وخوفه من تشويه صورته الدينية لدى الناس وهي رأسماله.

ج) مصاعب الجوار فان الجانب الشرقي من دمشق كله (وهو المجاور لمسجد أبي صالح) كان للنصارى يسكنونه منذ ما قبل الفتح (ولا يزالون إلى اليوم) كما كان حتى اليهود (ولا يزال) إلى الجنوب منهم «وكان أهل الباب الشرقي يخرجون إلى ظاهر الباب (في البساتين) ويشربون الخمر» ويحاول القادسية أن ينكروا عليهم ذلك فصار أهل الباب يكرهونهم ويكرهون عليهم العصيان لفقرهم بالحجارة ويشربون الخمر المتاعب.. ويعملون أقاتهم معلومة بالفتن.. (٢٣)٠٠

وهكذا تبلورت في خاطر الشيخ أحمد كبير القادسية آله قدامة أن يفير المنزل ولكن إلى أين ؟

٢ — القادسية ونشأة الصالحية :

كانت دمشق منذ صارت في يد نور الدين بن زنكي سنة ٥٤٩هـ، قد

وعلى امتداد الضفة الشمالية من نهر يزيد فيما بين السفوح الجرداء وسلسلة القري والبساتين كان يتد شريط من الأرض القليلة الميل تسابير النهر وتعرض هنا أو تضيق هناك تاركة المجال لبعض الحياة النباتية والسكن. فغمة بعض الرقاع الزراعية المحلية وثمة، في تلك الآونة، بعض الأبنية المنفردة يحمل بعضها اسم «الأديرة» لأنها كانت من قبل ممتلكها لبعض الرهبان: ففي الغرب: دير يعرف بدير الحوراني وكان يسكنه أبو العباس أحد الكهفي والشيخ عمارة وجامعة صغيرة. وكانت أرض الجبل في أيديهم يزرعونها ويقولون إنها للكهف. ثم إلى الشرق منه دار لبنت الفياح يسكنها جماعة. ودار للفقمة طرخان. وتنتشر هنا وهناك عدد من المساجد الصغيرة يقارب العشرة بعضها قديم وبعض مجانبى في هذه الفترة نفسها فوق القبور أو لبعض الزهاد (٢٧).

ومن الناحية الشرقية كان هناك دير لبعض الرهبان «وانفق أن أحدثوا شيئا فأخرجوا منه» فسكنه (حوالي سنة ٥١٥ - ٥٢٥) أولاد معبد بن مستفاد وأخوته وأقاربهم وهم من الحنابلة طلبه لهم الإمام عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الشيرازي الحنبل وكان يزورهم فيه فعرف الدير «بدير الحنابلة». ويبدو أن بنى المستفاد هجروه إلى المدينة بعد ذلك فسكنه الشيخ ابن عمر عبد الرحمن القابري وأناس قليلون معه.

وكان ثمة مصلى (موقعه مكان جامع الحنابلة اليوم) ومسجد عتيق على نهر يزيد (قبل جامع الشيخ محي الدين اليوم (٢٨)) ولكن الموقع كان ما يزال في

(٢٧) مجموع المساجد التي كانت في المنطقة سواء على السفح أو بين البساتين أو على الشريط النهري يقارب ٢٥ مسجداً صغيراً. وبعد التفصيلات عنها لدى ابن عساكر (تاريخ مدينة دمشق ج ٢ قسم ١ تحقيق النجد) ص ٨٥ - ٨٩ وثانته هامة فهو ماصر هذه الفترة. وتفرغ خسة منها بين البساتين والقرى وثمانية في السفح أو على الدروب إليه وبالقرب حول الشريط النهري. وقد نقل ابن شداد في العلاقات الخطرة (قسم دمشق ص ١٤٧ وما بعدها) قائمة ابن عساكر ثم أضاف إليها. وانظر من أجل التفصيلات الأخرى في هذه الفترة: القلائد ج ١ ص ٣٨ و ٣٩.

(٢٨) القلائد ج ١ ص ٣٨ - ٤٢ وتجدها هناك بعض التفصيلات الأخرى المتفرقة كما نجد ذلك في الروج ص ٨ - ١٠.

والقدسية لأن فيه عدداً من الكهوف والمناظر أحيطت مع الأيام ببعض الفضائل الخرافية والأساطير فهذه مغارة الجوع (الجوعية) وتلك مغارة الدم، (دم هابل) وهناك كهف جبريل (حيث تلقى آدم الغراء منه بابه هابل)، وهناك (بيت أبيات) حيث سكن آدم أبو البشر. وفي أعلى السفوح مغارة الأربعين (وفيها دفن أربعون نبياً) الخ (٢٥) وقد اقيمت في هذه المواقع وعلى الدروب الصاعدة إليها بعض المساجد الصغيرة ويزيد عددها على ثمانية لكن المنطقة رغم «بركانها» كانت في تلك الفترة من أواسط القرن السادس الهجري من الأرض القفر لا يزرعها عدا العابرين إلا بعض الوحش (كالصباغ والذئب) وبعض اللصوص الذين يقدمون إليها من وادي التيم عبر الجبال لتخطف بعض العابرين والتفردين وبيعهم عبيداً في بلاد الفرنجة (٢٦).

أما على الأطراف الدنيا من السفوح جنوبي نهر يزيد فكانت تمتد القري والبساتين الشمالية لغوطة دمشق والجنان النضرة يخترقها نهر ثورا موازياً ليزيد وعلى مسافة قليلة منه. ففي أقصى الغرب كان ثمة الربرة ويليها نحو الشرق دير مران الذي ظل منزل الحكام العباسيين والفاطميين زمناً طويلاً قبل أن يهجر. وتليه قرية النيرب المقصورة بالظفرة وفيها البيوت والجواسق حيث استشهد في الحملة الصليبية الثانية سنة ٤٥٣ بعض الشيخ المداغين عن دمشق فما تزال قبورهم ماثلة (أبو الحجاج يوسف بن درباس الفندلاوى وعبد الرحمن المالحول).

ومثلها قرية أرزة (وهي منطقة الشهداء اليوم) ثم تأتي قرية بيت أبيات (وهي منطقة طاحون الأشنان القديمة) ضمن البساتين وتنتهي السلسلة بقرية مقري (منطقة الحلالات والميسات إلى عهد قريب) وقرية الميطور (أسفل المدرسة الركية بحى ركن الدين اليوم) ..

(٢٥) أنظر في ذلك ما ورد في: كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات للهروي وفضائل الشام للربيعي، ومسالك الإصدار لابن فضل الله العمري وفي القلائد، وفي الروج السنسية وتاريخ ابن عساكر وغيرها. وفي كتب فضائل الشام.

(٢٦) القلائد ج ١ ص ٣٩ و ٣٨ والروج ص ١٠.

فكانوا يكترون من يعملون عليه. وقد عاونهم أبو عمر القابري وأهله فيه. فبنوا في السنة الأولى ثلاثة أبيات فقط وكانوا يقولون يكفينا بيت واحد. لكثرة الموت فيهم .

كانت الأبيات الثلاثة للشيخ أحمد وابنه أبي عمر وصهره محمد. وكان الخنز يحمل للمعالين في البناء من المدينة. ثم اضطروا أن ينقلوا المرأة الشيخ إلى الجبل لتقوم بالطعامهم... وفي جادى الآخر سنة ٥٥٤ (مارس - حزيران سنة ١١٥٩) أي بعد ثلاث سنوات ونيف من المقام بمسجد أبي صالح انتقلت أولى الجماعات المقدسية إلى سفح قاسيون. في السنة التالية صارت البيوت عشرة (٢١) متلاصقة ولكن سكانها كانوا على الرعب الدائم فلم يكن لجموعة البيوت باب، كباب دير الحوراني الجبى الجماعة وأولادها من الوحش ومن اللصوص وبخاصة «حرامية وادى التيم وكانت لهم شوكة ومنعة»! فأقاموا للبيوت بابا موحدا يفتح عليها... ودعا الناس هذه المجموعة السكنية الجديدة بدير الحنابلة! على الاسم القديم! لكن جماعة القادسة حلت معها اسم مسجد أبي صالح الذي كانت تنزله فكان الناس يدعونهم بالصالحية. «نسبة إلى صاحب ذلك المسجد لا على أنهم صالحون» (٢٢) لكن هذا اللقب الثالث الذي حملته الجماعة بعد «الحنابلية» (والمقدسي) «مالبث أن انسحب على البقعة التي نزلوها في سفح قاسيون لأنهم ظلوا يفضلون نسبة القادسة مع أسمائهم..

وبالرغم من أن بعض السكان السابقين في السفح (كأبي العباس الكهفي) قد خافوا أن تتكاثر الجماعة وتملك الموضع هناك وتسلبهم الأراضي التي يزرعون إلا أنهم سرعان ما اطمأنوا حين تبين أن هدف الجماعة لم يكن في الأرض والزراعة ولكن في العمل بالقلم... فقد تكاثرت الدور بالتدريج من حولهم وتكاثر عليهم الزوار والطلاب والهدايا. وبدأت الاوقاف تجس على «دير الحنابلة» وتزداد حتى كان منها، فيما بعد، قرية الهامة والااضي التي تقدمها

(٢١) في القلائد ج ١ ص ٣٧ - ٣٩ بعض التفاصيل الأخرى.

(٢٢) القلائد ج ١ ص ٢٥ و ٢٦.

تصرف بنى المستفاد ولم تكن الجماعة المقدسية تجهل سفح قاسيون وما فيه من مواقع التبرك. فقد زارته جماعات منهم ٢٢ مرة على الأقل حين دفنوا فيه ٢٢ من موتاهم التماية والمشرين. وكانوا على صدقة مع آل المستفاد ويعرفون من خلالها قصة دير الحنابلة هناك. كما كان لأحد القادسة (عبدالرحمن بن أبي عبدالرحمن) «جنينة» فوق نهر يزيد عند الدير الشرقي وقد مات فيها هو وابنه الصغير (٢١) ولكن الجماعة لم تكن تفكر في ذلك الموضع لأنه ليس مجال الزراعة والرزق فلهذه الجماعة القروية. على أن ضغط الظروف أجبرها على القبول به... وأجبرها بالتالي ونتيجة لذلك على تغيير موارد عيشها وطرائق إنتاجها من الزراعة وهي براعاتها الأولى إلى العلم وهو مجاها الثاني الاضافي .

ولقد كان الفقيه طرخان يرغبهم في الموقع وآل الحنبلي يعرفهم به (٢٠) كما كان آل المستفاد يدعونهم إلى ذلك. وكان أبو عبد الحنان عبد الواحد بن معبد بن مستفاد يخرج مع الجماعة القدامية إلى سفح قاسيون لموتهم في دفن موتاهم فلما رأى ضيق صدر الشيخ أحمد بوقوعه في مسجد أبي صالح اقترح عليه أن ينظر في موضع دير الحنابلة فإن أعجبه بنى فيه... وخرج الشيخ فصلى هناك في المصلى المعتيق وقال : ما هذا إلا موضع مبارك (٢١) وتقرر بذلك انتقال الجماعة المقدسية إلى سفح قاسيون. وإلى الموقع الذي يقوم فيه جامع الحنابلة اليوم وكان هذا يعني في الوقت نفسه اختيار طريق العلم مورد للمعيش وهجر الزراعة نهائيا. وهكذا قدر لذلك الشريط من الأرض الجبلية الموزى لنهر يزيد والقطع تارة بحجاري السيول وتارة ببعض المزروعات البعلية والذي تنتشر فيه بعض المساجد المتفرقة والدور المتفرقة، أن تقوم عليه بلدة علم: الصالحية .

ولم يكن لدى القادسة لا المال الكافي ولا القوة على البناء ولا الخبرة به

(٢١) القلائد ج ١ ص ٣٥.

(٢٠) القلائد ج ١ ص ٣٨ - ٣٩ وص ٢٥.

(٢١) القلائد ج ١ ص ٣٧.

وعلى أى حال فاذا بدأ منذ سنة ١١٥٩/٥٥٤ تاريخ جديد لآل قدامة

وللبقعة التي نزلوها من قاسيون وللمذهب الجليل في الشام فقد انتهت مرحلة التأسيس الأولى هذه لأجداد آل قدامة وولي الصالحية الذي أسسوه بوث الشيخ أحمد سنة ١١٦٢/٥٥٨ رأس الأسرة المهاجرة وله سبع وستون سنة .

٣ - ظهور آل قدامة وتوسع الصالحية :

بدأت بعد موت الشيخ أحمد المرحلة الثانية في تاريخ الأسرة وتاريخ المنزل الذي نزل من سفح قاسيون. وهي مرحلة تفاقم فيها توسع الحي وازدهاره مع بروز الأسرة واشتهار رجالها. وكان كل من الطرفين يبيع الآخر ثأله و يكسب في الوقت نفسه من نشاطه في عملية تبادل دورى متنامية .

وكما أن عوامل كثيرة ساعدت على توسع وتطور الصالحية وكذلك فان هجرة متصلة من العناصر القروية الجماعية والقدسية والنبالسية ظلت ترفد الجماعة القدامية الأولى وتزيد في عددها ونشاطها، وإذا كان بعض هذه العناصر يأتي من فلسطين للدراسة والعودة فان معظمها كان يأتي للاستقرار. حتى بعد أن تخورت فلسطين على يد صلاح الدين لم يرجع المهاجرون القادسية إليها بل ظلت حركة الهجرة بالعكس متجهة من فلسطين الى الصالحية، يحفزها الى ذلك ما وجدته الجماعة القدسية من النجاح ومن الاحترام العميق ومن مورد العيش المأمون .

ويجب أن نسجل مقابل هذا ملاحظة أخرى هي أنه ليس في تاريخ الهجرات الى الشام هجرة استطاعت أن تتميز وأن تنشيء بلداً لها يحمل اسمها وأن تفرض في هذا البلد خطها الجبائي كما فعل القادسية . فقد هاجر الى دمشق الاكراد (أيام صلاح الدين وشكلوا حي الاكراد) وهاجر في العصر الحديث الشركس (في مطلع هذا القرن) والجزائريون (مع الأمير عبدالقادر) والارمن (هربا من المذابح الشركية أواخر القرن الماضي ومن بعده) وأهل كريت (ونزولوا حي

قوية ست زينة كل سنة.

يقول الحافظ ضياء الدين نقلا عن والدته: «انتقلنا الى الجبل وكان الناس لم يكونوا يعرفون والدي (الشيخ أحمد) الا بعد خروجه الى الجبل فكان الناس يأتونه ويزورونه ويهدون اليه. وكان السلطان نور الدين يأتي الى زيارته وما كنا نعرف شراء الفاكهة والبسطيخ والنفح من كثرة ما كان يهدى اليها» (٣٣).

وتبرع رجل يسمى أبا الحرم بن صملوك المستقلاني فبنى للشيخ أحمد مسجداً اتخذته الشيخ مدرسة أيضاً وهو ما عرف بالمدرسة الصغيرة أو مدرسة ناصر الدين فيما بعد (غربي المدرسة العمرية وجنوبي الدين) وكان يزوره فيها نور الدين محمود بن زنكي» و ينتفع به «وقد أرسل ذات مرة مرة نجاره فأصلح خشبة في سقف المسجد. ويبدو أنه، بعد وفاة الشيخ، أعاد بناء المدرسة الاولى الذي لم يكن على ما يظهر متيناً وأضاف اليه الصنيع الذي صار يعرف بشر الشيخ، كما أضاف فزاً للخير. (٣٤).

(٣٣) القلائد ج ١ ص ٣٨ والنص في الكتاب فيه خطأ إذ يقول الحافظ ضياء الدين سمعت والدي يقول: «والده هو عبد الواحد» والتحدث هو والدته ابنة الشيخ أحمد. أما أوقاف الدبر فقد رواها ابن طولون في القلائد ١٦٨/١

(٣٤) هناك نضمان ماصوران وتعارضان بعمد هذا البناء:

الأول لابن عساكر كتبه قبل موت الشيخ أحمد سنة ٥٥٨ هـ يقول: «...وجامع بناء أبو الحرم بن صملوك المستقلاني لأحمد الجماعلي» (تاريخ مدينة دمشق ج ٢ رقم ١ تحقيق النجد ص ٨٩). الثاني لسيط ابن الجوزي (في مرآة الزمان ج ٨ قسم ١ - ط. حيدرآباد ص ٣١٤) يحكي كلام أبي عمر ابن الشيخ أحمد يقول فيه: «كان نور الدين يزور والدي في المدرسة الصغيرة الجاورة للدير ونور الدين بنى هذه المدرسة والصنيع والقرن فبناه مرة وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة...»

ولما كان نص ابن عساكر دقيقاً حاسماً فقد رجح لدينا أن يكون البناء الأول للمسجد على يد المستقلاني وأن يكون نور الدين قد أعاد بناء المدرسة وبنى الصنيع والقرن بعد وفاة الشيخ أحمد تكريماً له ولكن يتابع ابنه أبو عمر فيها عمله التدريسي الذي استمر (قبل وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٩٩) حوالي ٢٥ سنة إلى أن جرى بناء المدرسة العمرية الواسعة وجرى الانتقال إليها.

كان ضفط الطلاب وتكاثرهم على المدرسة القديمة هو الذي دفع أبا عمر إلى بناء المدرسة العمرية ويبدو أن ذلك كان فيما بين سنة ٥٩٠/٥٨٠ وأن بعض أهل الدين قد أعاناه على البناء، «وكان مكان المدرسة مقصبة» وتفتق ضفادع فشزع أبو عمر في عمل «مصنع» المدرسة (أي البئر جنوبى النهر) ثم عقد النهر (أي غطاه) وبنى المسجد وبنى عشر خلاوى للفقراء عقدا. وكانت المدرسة إلى طرف الإيوانين القبلى والشمالى. (٣١). بعد ذلك بسنوات، أى في سنة ٥٩٨ بدأ أبو عمر مشروعه البنائى الثانى: جامع الحنابلة (المظفرى) الذي كرس تحول الصالحية إلى بلد دى «منبر».

وقد وقف أبو عمر مدرسته على اقراء القرآن وعلى الفقه. «فتعلم بها القرآن قوم لا يحصون» واستطالت سمعتها بصحة صاحبها كما استطالت شهرة أبى عمر نفسه بشهرة جامعة أخرى من العلماء أخرجتها الأسرة في تلك الفترة.

وقد أتم أبو عمر عمله العلمى الدينى بأن حول الجيل الناشئ كله في أسرته، وفي الأسر التي هاجرت معها من قراها الأولى، إلى جبل من العلماء ومن طلبه العلم وماليت هذا الجيل أن أبرز عددا من كبار العلماء جاءوا ليؤكدوا سمعة وقوة المؤسسة الحنبلية الناشئة على جبل قاسيون، وليجروا في الوقت نفسه الأجيال التالية من الأسرة إلى الخط الانتاجى - المعاشى نفسه: خط العلم. وهكذا بينما كانت المدرسة تقوى وتكبر كانت الأسرة القدامية مع أقرانها الملتصقين بها تقدم خمسة أو سبعة رجال لفتوا الانظار العلمية لا في الشام فحسب ولكن في بغداد وخراسان وفي مصر.

وإذا تركنا جانباً منهم أمثال: عماد الدين إبراهيم (المتوفى سنة ٦١٤) وشمس الدين أحمد البخارى (المتوفى ٦٢٣) وبهاء الدين عبد الرحمن (المتوفى ٦٢٤) وجدنا أن ثلاثة منهم على الأقل صاروا أقطاب الفكر الحنبل على العصور:

(٣١) الثلاث ج ١ ص ١٦٩.

المهاجرين الذي سمي باسمهم آخر القرن الماضي) وهاجر الليثيون والجزائريون.. واندجحت هذه المجرات في البوينة الدمشقية (كما انصهر القادسة أيضا) ولكن دون أن تترك أى أثر واضح في التاريخ العمرانى أو الاقتصادى أو الفكرى لدمشق كما ترك القادسة.

كان محور الحركة بالنسبة للأسرة القدامية: أبا عمر محمد بن الشيخ أحمد وهو الذي رسم للجماعة القديسية خطها العلمى فما برحت تسير عليه عدة قرون. ولد في جماعيل سنة ٥٢٨ وهاجر مع والده إلى دمشق سنة ٥٥١ وحفظ القرآن وأخذ الحديث عن شيوخ دمشق ثم مصر وقرأ النحو هناك على ابن برى وجمع إلى معرفة الفقه والفرائض والنحو الزهد والعمل والطبية. يقول أخوه الموفق عنه «كان شيخنا ربانا وأحسن إلينا.. وهو الذي هاجر بنا وسقنا إلى بغداد.. وبنى الدبر.. ثم زوجنا وبنى لنا الدور. وكفانا هموم الدنيا..» ولقد ظل رأس الجماعة نصف قرن حتى توفي سنة ١٢١٠/٦٠٧ وقدم بعلمه وسلوكه وتقاه وكثرة صباه وعبادته واشتراكه في الجهاد مع صلاح الدين (و يوم فتح القدس) المثل الذي احتذاه رجال الأسرة من بعد كما كان النموذج المرتضى من الرجال في ذلك العصر حتى لقد نسبت إليه الكرامات العديدة (٢٥) واعتبره بعضهم «قطب الوقت» في السنوات الأخيرة من حياته وحين توفي خرج في جنازته عشرون ألف مشيع فيهم كل كبار القوم ولولا بعض قواد الجند يحرسونه بالسيف والدبابيس ما وصل قبره شيء من أكفانه التي كان الناس يقتطعون منها للبركة.. ولعل أهم أعلامه أنه أعطى الجماعة القديسية مؤسسة علمية حنبلية تحولت حولها نشاطات رجال الأسرة كما اجتذبت إليها المريدن والطلاب فقد أنشأ بجانب مدرسة أبيه إلى الشرق على نهر يزيد مدرسة ماتزال اطلالا إلى اليوم تحمل اسمه هي المدرسة العمرية.

(٢٥) انظر هذا كله مع ترجمته لدى ابن رجب - ذيل طبقات الحنابلة ٥٧/٢ - ٦١ فهناك روايات كثيرة عنه وقد ذكر ذلك قبله سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٤٧ - ٥٥١ والاثنتان أيضا ذكره القياة القديسي في سيرته.

عليها بعض أهل الجبل وأنشأ فيها مكتبة واسعة وقف عليها كتيبه. وقد اكملت هذه المدرسة مهمة المدرسة العمرية التي اهتمت بقراءة القرآن والفقهاء كما دعمت مركز المقادسة العلمي والديني وأنشأت في شهرتهم وشأنهم. ولا شك أن آلا قدامة إذا كانوا قد أعطوا هذا المراكز العلمية الذي أقاموه في قاسيون الكثير من جهودهم الفكرية فإن ما لقوه من التشجيع الكبير ومن الاحترام ومن التكريم والعون المادي على مختلف المستويات كل ذلك قد دفعهم بالقابل الى المزيد من العمل والانتاج في الميدان الذي اختاروه .

وهكذا بينما كانت سمعة آل قدامة في التقى تزداد وشهرة مدرستهم وحلقاتهم في العلم تنتشر وتلازمهم في القرآن والحديث والفقهاء يكثرزون بالألوف، كانت الأموال والالواقف والهباء بالقابل تندفق على الجماعة القدسية وعلى المدرستين وكانت الأبنية حول دير الحنابلة وعلى الجبل تنتشر وتتكاثر حتى أصبحت البقعة في أقل من نصف قرن، بلدة كاملة ذات أسواق ومنازل وسكان ومساجد ومؤسسات وأفران وحمامات وحياة عامة واكتفاء بذاتها عن مدينة دمشق. (٤٠).

والواقع أن تأسيس الصالحية بجوار دمشق قد استجاب لـ دون أن يدري المقادسة إلى مجموعة من الحاجات فرضتها ظروف ذلك العصر وعملت على إيجادها مجموعة من العوامل التي تباينة ظهرت آثارها في دمشق بشكل تكاثفات وتحويلات ديموغرافية عتيقة أخذت في تلك الأيام بالذات تزداد ضغطاً وضوحاً في تلك المدينة الدهرية المحبوسة ضمن سورها المحدود .

أ) العامل السياسي : وهو أهم العوامل وأقواها أثر فقد كانت الفترة التي

(٤٠) ياقوت (معجم البلدان ٣/ ٣٩٠) - يعقبا حين ألف معجبه حوالي سنة ٦٢١ أي في أواسط العهد الأيوبي بأنها: «قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في طرف جبل قاسيون من غوطة دمشق وفيها قنطرة جامعة من الصالحين ويسكنها أيضاً جماعة من الصالحين لا تكاد تخلو منهم واكثر أهلها نائلة بيت المقدس على مذهب أحد بن حنبل».

١) تقى الدين عبد الفتى بن عبد الواحد بن علي بن سرور (ابن خالة أبي عمر) (ولد بجما عيل سنة ٥٤١ وتوفي سنة ٦٠٣/ ١٢٠٣) الذي أضحى من كبار الحفاظ ورواة الحديث وقد سموه (حافظ الوقت ومحدثه). ترك من المؤلفات خمسة وأربعين كتاباً بعضها في عشرين مجلداً (مثل نهاية المراد من كلام خير العباد) وبعضها في عشرة (الكمال في معرفة الرجال) (٣٧).

٢) موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه (شقيق أبي عمر) (ولد بجما عيل سنة ٥٤١) وتوفي بقاسيون سنة ٦٢٠/ ١٢٢٣) وهو شيخ الفقه الحنبلي بكتابة (المنقى) ذى الجلدات المشقة. منحه الناس لقب «شيخ الاسلام» و «إمام الأئمة» ونسبوا اليه بدوره الكرامات بل المني على المال. ومؤلفاته تقارب الثلاثين (٣٨).

٣) ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن السعدى (ابن شقيقه أبي عمر) (ولد بدمشق سنة ٥٦٩ وتوفي بها سنة ٦٤٣) وهو حافظ الذي اعتبره بعضهم «من العلماء الربانيين» في الثقة والورع والزهد حتى سماه الذهبي «محدث الشام وشيخ السنة» (٣٩).

وقد ترك ما يزيد على عشرين مؤلفاً، وأنشأ على باب دير الحنابلة من الشرق، ونتيجة لتزايد ضغط الطلبة (دار حديث) للرباء الوافدين أعانه

(٣٧) انظر سيرته المطبوعة في ابن رجب - ذيل طبقات الحنابلة ج ٢ - ص ٥ - ٣٤. وله تراجم كثيرة متعددة في مختلف المصادر منها اليافعي - مرآة الجنان (جذر بآر سنة ١٣١٨) ج ٣ ص ٤٩٩ - ٥٠٠ ابن الحنبلي شذرات ج ٤/ ٣٤٥ - ٣٤٦، ابن كثير البداية والنهاية ج ١٣/ ٢٨ - ٢٩ ابن تقي بريدي - النجوم الزاهرة ج ٦/ ١٨٥ - ١٨٦.

(٣٨) انظر أيضاً ترجمته المطبوعة في ابن رجب ج ٢ ص ١٣٣ - ١٤٩، ولدى أبي شامة - ذيل الروضتين ج ١٣٩ - ١٤٢ وابن كثير البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩٩ - ١٠٠ وابن العماد الحنبلي شذرات ج ١/ ٢٠٢ - ٢٠٤ واليا فعي - مرآة ج ٤ ص ٤٧ - ٤٨.

(٣٩) انظر ترجمته كذلك في ابن رجب ج ٢ ص ٢٣٧ - ٢٤٠ والذهبي - تذكرة الحفاظ ج ٤/ ١٩٠ - ١٩٢ وابن شاكر الكتبي فوات الوفيات ج ٢/ ٢٣٨ وابن كثير - البداية ج ١٣/ ١٦٩ - ١٧٠ والعصدي - الوافي ج ٤/ ٦٥ - ٦٦.

سكنى يستوعب ذلك التكاثر السكاني المتزايد ولابد من مؤسسات تقدم له الخدمات المأشقة والروحية والعلمية وتنظم علاقاته الانتاجية.. ولابد من حركة عمرانية وثقافة واقتصادية تراقب كل ذلك وكانت الصالحية واحدة من خمس مناطق أفرغت فيها دمشق تزايدها السكاني (الشاغور وقصر جحاج في الجنوب الغربي من سور المدينة والفرايس خارج السور من الشمال وهذه الأحياء الثلاثة ملاصقة لدمشق. ثم قرية المزة غربي دمشق. ثم هذا البلد الجديد البعيد في الشمال الغربي: الصالحية) (٤١).

وإذا كانت المؤسسات الدينية والعلمية والاقتصادية في البلد الأم، دمشق قد ابتلعت البقاع الثلاث الأولى ومنعتها من البروز الشديد ومن التميز بكيان خاص فإن انفصال الصالحية من جهة وبعدها النسي عن المدينة وقديمة جبلها ثم المؤسسة العلمية التي حل آل قدامة عبء تألقها كل ذلك قد أسهم في نوه هذه الموقع السكنى الجديد وازدياد عمرانه بسرعة غريبة بالنسبة لذلك العصر.

على أن عوامل أخرى (محلية وعامة) أسهمت بدورها في ما أخذته الصالحية (وأسرة المقادسة) من مدى توسع سريع وفي منحها التميز الديني والبلداني الخاص بها وفي المزيد من لفت الأنظار إليها والاتقال على سكانها. وهذه العوامل كانت تنعم الأولى بالطبع وتعطيها المعنى الحقيقي.

د) العامل الديني: وكان له في هذا المجال وجهان أحدهما على موضوعي والثاني عام متصل بالمعصر وكلاهما تابع من عملية الدافع: فأما المحل فهو تاجم عن الطابع الديني المزوج الذي التقى فيه تدين المقادسة مع قدسية جبل قاسيون.

(٤١) راجع ابن عساكر وصف مدينة دمشق في القسم الأول من الجزء الثاني (تحقيق المنجد - طبع دمشق ١٩٥٤) وابن شداد الاعلاق الفظيرة (قسم دمشق تحقيق الدهان) والنسبي في المدارس في تاريخ المدارس (تحقيق جعفر الحسني - دمشق سنة ١٩٥١) وانظر كذلك في المورقة الإسلامية (الطبعة الجديدة) وانظر المورقات التي أرفقت بخلاف هذه الأبحاث أيضا.

امتدت من أواسط القرن السادس الهجري حتى مطلع السابع فترة نشاط كثيف في مختلف جوانب الحياة السياسية والعسكرية والسكانية والعلمية والاقتصادية لم تعرفه الشام منذ قرون. تلك كانت أيام نور الدين ثم صلاح الدين ثم الملك العادل من بعده وتوحيد الجبهة الإسلامية ثم معركة حطين واسترداد القدس ومعظم فلسطين ثم الحروب الأيوبية حتى الحملة الخامسة والسادسة.. وقد ترك هذا النشاط في الدرجة الأولى في دمشق لاسبب توسعها وربطها بين بغداد والقاهرة فقط ولا بسبب قيامها في قلب الجبهة الصليبية أيضا وعلى أبعاد محدودة ومتقاربة من مختلف مواقعها ولكن أيضا وأيضا لأن شأن القاهرة في المقاومة تضاعف في العهد الفاطمي الأخير حتى انقضت خلافتها وصارت جنحا من أجنحة صلاح الدين ولأن دور الخلافة البغدادية كان بدوره ثانويا في المعترك السياسي والحربي يومذاك مما يمكن لدمشق ان تصبح القلب السياسي العسكري للشرق الاسلامي خلال هذه الفترة.

ب) العامل الاقتصادي: نتيجة هذا التحول الجذري في مقدرات دمشق، تحولت المدينة الى مركز اقتصادي شديد الحيوية فهي الآن مركز السلطان وحاشيته وامرانه وجنده ومما يلكهم وما يتبع ذلك من موارد مالية واسعة وحاجات حيوية ملحة وتبذير في الكماليات والترفيه والبذخ وانفاق مترابدة في الحاجات اليومية وزيادة في الخدمات وكثافة مطردة في حركة التوافل والتجارة وتنوع في الحرف وتزايد في أعداد الحرفيين واتساع في أسواق الغذاء والملبس والأثاث والسلاح والكماليات بالإضافة الى حاجات العمران والبناء وما يتصل به. كل ذلك زاد في غنى وفي تعقيد البنى الاقتصادية وحركتها في دمشق وزاد في الوقت نفسه في علاقاتها وفي حاجتها الى التوسع.

ح) التكاثر الديمغرافي: وقد نجم عن ذلك كله تكاثف في النزوح السكاني الى دمشق لامن الجند والعلماء وطالبي الوظائف أو العلم ولكن أيضا من التجار والصناع الذين يجذبهم النشاط الاقتصادي. والحروب في المادة تخلق الوان النشاطات وحاجات الجند والتحصين والتسلح التي لا تنتهي. فكان لابد من مدى

الدفاع وإيقاد نار الجهاد في المصدر لضمان البقاء (هل نذكر باترى كثرة ظهور كتب الجهاد في هذه الفترة؟) ولذلك كله كان إنشاء الصالحية يؤدي وظيفة أساسية في جبهة الجهاد يومذاك ويلي حاجة من حاجات العصر. وإذا لم تنشأ بوصفها مركزاً اقتصادياً وسياسياً أو عسكرياً فقد نشأت في الواقع بوصفها مركز دفاع ومقر مقاومة وتبعية معنوية ضمن إطار العمل العسكري العام وأكملت لدمشق (السنية) جناحها الحنبلي الذي يعمق وجودها وأثرها الاسلامي .

وهكذا بينما كانت دمشق تأخذ صفات المدن الكبرى كانت الصالحية تتحول بجهود آل قدامة خاصة وسمعتهم وفي إطار الجور السياسي الفكري العام الى «مدينة علم» تتلء بالمدارس - والعلم يومذاك يعنى علوم الدين - والى منطقة «بركة» ودين وقُديسيات و«تعبئة دينية» تكثرت فيها المساجد والزوايا والترب . وتنافس في ذلك كله المدينة الأم دمشق. وقد تسارع ذلك بصورة خاصة وكثر بعد مطلع القرن السابع. أما قبل ذلك فكانت مرحلة الاعداد ومرحلة تكون المجتمع الحضري الذي سوف يحتضن النشاطات المختلفة. لهذا لا نجد في الصالحية قبل سنة ٦٠٠ سوى:

١) جامع واحد هو جامع الجبل (الذي عرف فيما بعد بالجامع المنظري أو بجامع الصالحين أو بجامع الحباية وما يزال قائماً الى اليوم يحمل هذا الاسم نفسه) «وقد شرع أبو عمر القديسي ببنائه سنة ٥٩٨ على نفقة (شيخ ذى غنى) هو الشيخ أبو داود عاسن (أو على) القامي حتى بلغ البناء مقدار قامة ففقد ما كان معه . وعلم الملك المنظر كوكبوري بن زين الدين صاحب اربل في العراق بالأمير فأرسل مع حاجيه شجاع الأربلي ثلاثة آلاف دينار لاتعامه وألف دينار ليسانق بها الماء إلى من قرية برة (أو من بردى؟) وتعذر سوق الماء فصنع للجامع بئراً وعليه بفل يدور ووقف عليه الأوقاف (٤٢). وقد عتبر بناء الجامع عن تحول الصالحية من مجتمع سكانى

(٤٢) ابن كثير - البداية والنهاية (ط . المعارف والنص بيروت ١٩٦٦) ج ١٣ ص ٣٢ وص ١٣٦ وابن عبد الحادي نشار المقاصد في ذكر المساجد (ط مكتبة لبنان ١٩٧٥) ص ١٥٢ و ٢٠٩ والسيمي - الدارس في تاريخ (ط الجزائري دمشق - ١٩٥١) ج ٢ ص ٤٢٥ - ٤٢٦، وابن

ويتضح دور آل قدامة في سمعتهم العلمية الدينية ودور قاسيون . وما ينسب اليه من البركات في بروز الصالحية وتطورها السريع حين تقارن بينها وبين ضاحية المرة المماثلة لها على السفوح في غربي دمشق فقد ظلت مجرد قرية كبيرة لا تتميز بغير الكثرة الديموغرافية، بالقياس الى تطور المؤسسات العامة والدينية في جبل الصالحية . وعلماء المرة لم يدرسوا وبرزوا فيها ولكن في دمشق . ولم يكن غريباً مع الحماسة الدينية التي أعقبت فتح القدس، خاصة، ومع الاخطار الداهية التي أخذت بعد ذلك تهدد قلب العالم الاسلامي في الشام من الشرق (المول) ومن الغرب (الصليبيين) أن يصبح مركز كالركر الذي أقامه آل قدامة للعلوم الدينية في سفوح دمشق الشمالية مركز إشعاع روحي واسع يجتذب الكثير من الأماتة والطلاب ويغنى باعجاب الناس على السواء .

وأما من الناحية العامة المتصلة بأجواء العصر وحاجاته فقد كان اللجوء الى الدين والتمتع فيه والمبالغة في الورع والمروة الدينية جزءاً من أعمال المقاومة وسبيلاً من سبل تأصيل الجهاد وشنن النفوس بالقيم والمغويات. ويجب أن نضيف الى هذه كله دون شك أن الأتابكة والأيوبيين وسواهم دمشق بسمة خاصة حين جعلوها موقفاً حروبياً - دينياً مما . ولا كانت سياستهم متجهة بكاملها الى نصرة الاسلام السننى سواء بمحاربة المسلمين خارجياً أو بحاربة التشيع (الفاطمي وغيره) داخلياً لذلك نجدهم يشجعون كل النشاطات الدينية السنية، هم وامراؤهم، و يؤيدون وجود المريد من شيوخ الدين، ومن بناء المدارس للمعلم والمساجد والزوايا والربط للمجادة .

كان العصر عصر يقظة «السنة» وتنبه روح الدفاع والجهاد. ومع انتقال المركز السياسي العسكري الى دمشق تجمع فيها أيضاً رجال جميع المذاهب السنية الشروقية. ولما لم يكن للمذهب الحنبلي من مكان مريح في دمشق مع سيطرة الاسلامي احترام مؤسستين هما: الدينية والعسكرية، عملت جميع المذاهب السنية في خطط دفاعي واحد داخلي خارجي همته إيقاظ الحيوية الدينية في الناس من أجل

الدين مجموعة متزايدة من جنده الأكراد البطالين (الذين تقاعدوا عن العمل في الجندية) ومن النازحين (وماتزال بقاياهم موجودة في الحى المعروف حتى اليوم بحي الأكراد) وسكنها العديد من العلماء من مختلف البلاد ومن مختلف المذاهب (وبغضاه من الأحناف) وتكاثف فيها طلاب العلم والمتصوفة والزهاد. وقدم مع هؤلاء وهؤلاء مجموعات من الحرفيين وصمال البناء والخدمات العامة

وبالرغم من أن هذا النشاط «الصالحى» كان جزءا من نشاط دمشق العام وقسما متما له بسبب ماعرفته دمشق في العهد الأيوبى من مكان سياسى وحرى واقتصادى ودينى ومن صلات تجارية منظمة مع التجارة الإيطالية أيام الحادل ثم المعظم ثم الأشرف ومن تطور في صناعة الزجاج المذهب والسلاح والجلود والورق والبروكاد الحريرى والنحاس المطعم بالنفضة وفي الفنون المعمارية. بالرغم من ذلك فقد تميز نشاط الصالحيه عامة بأمرين مترابطين: العلم والعمران الدينى.

وإذا امتد العهد الأيوبى في دمشق الى ما بعد أواسط القرن السابع بقليل فإننا نلاحظ أن الصالحيه قد عرفت خلال هذه الفترة الكثير جدا من العلماء المستقرين فيها أو الزائرين لها ومن الطلاب المنتفعين فكانت - وظلت فيما بعد - خليه علم كما تميزت أبنيتها الدينية العلمية بالرحابة والتساع والاطلال الرائع على غوطه دمشق عما زاد في الاعجاب بها والتألق في بنائها. وقد ظهرت بها في العصر الأيوبى :

١) أربع دور للحديث تقليدا لما ظهر منها في دمشق المدينة منذ عهد نور الدين :

— دار الحديث الضيائية التى أنشأها ضياء الدين القندى وكانت تسمى دار السنة أيضا.

— دار الحديث الأشرفية (٨) القدسية وقد بناها الملك الأشرف مظفر الدين موسى (٤٨) الثلاث ج ١ ص ٩٥-١٠٢.

صغير أو قرية محدودة الى جماعة منظمة و بلد واسع يستحق اقامة منبر له، منفصل عن منبر المدينة المجاورة دمشق.

(٢) مدرسة واحدة هي المدرسة العمرية .

(٣) أربع ترب (قبور) لكبار الدولة. وقد بدأ هذا التقليد ببناء المدافن الفخمة في الصالحيه عماد الدين (٢٣) أحد أمراء نور الدين وصاحب بعلبك وتدمر الذى بنى تربة بنيت في الجبل (و بقاياها موجودة في التربة) وكان طبيعيا، مع سمعة قاسيون القدسية وجفاف تربته و بدء الاتصال التمدادى معه والعمران أن يكون مما يفكر به الكبراء اقامة المدافن الفخمة ذات القباب فيه وهكذا لحق العماد فى بنائها حتى أواخر القرن أربعة أخرون فكانت : تربة فتح الدين أبى طالب سنة ٥٦٨ (٤٤) ثم تربة عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنروز وجه نور الدين ثم صلاح الدين سنة ٥٨١ (٤٥) ثم تربة الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاشين المتوفى سنة ٥٨٧ وقد بنتها له أمه ست الثمام (٤٦) بنت أيوب (أخت صلاح الدين) ثم تربة شجاع الدين طغرل بن حيدر الملكى الناصري المتوفى سنة ٩٥٤ (٤٧).

وما كاد القرن السابع يطل حتى تحولت الصالحيه الى ورشة عمران ونشاط اقتصادي - علمى. فقد توضع في شرفيها خاصة منذ أواخر عهد صلاح

— شداد — الاخلاق الحظيرة (قسم دمشق) ص ٨٩ وابن كان المروج السنية ص ٣٩-٤٤ ونلاحظ أن المصادر تختلف في مصدر جلب الماء من بردي أو من قرية برزة. والأرجح أنه من قرية برزة ولذا ذكر غيراً قد يفيد في هذا المجال أورد ابن عساكر (ج ٢ ص ١ قسم ١٦٦) يقول: إن المأمون سير قساة من ماء سين الى معسكره في دير مران، و قرية مدين واقعة خلف برزة في الجبال ويصل بينهما واد فيه مياه. و برزة في شرق جبل الصالحيه عند آخر هذا الوادي ودير مران في غربي الصالحيه. وبين برزة والدير السفح الذى بنيت عليه الصالحيه.

(٤٣) أبرشامة. الروصيتي ج ١ ص ١٨٠ والقلاند الجهرية ١ ص ٢٢٦.

(٤٤) القلاند ج ١ ص ٢٣٣.

(٤٥) القلاند ج ١ ص ٥٥ والشرية ماتزال موجودة وبنائها الجامع الذى بنى حولها في أيام الذهبي المروج (حوالي سنة ٧٣٠-٧٤٠) ويدعى الى اليوم الجامع الجديد في آخر طلة حمام القمام.

(٤٦) القلاند ج ١ ص ١٨٧.

(٤٧) القلاند ١/٢٣٥.

٣) ثلاث عشرة مدرسة : وكانت اثنتان منها للشافعية واثنان للحنبالية

وتسع مدارس للأحناف، والسبب في كثرة المدارس الحنفية هنا أن معظم الأمراء والأكبراء وهم من الترك، كانوا على المذهب الحنفي في الوقت الذي كانت دمشق فيه على المذهب الشافعي، فوجه الأحناف مجاهل الحوي إلى الصالحية.

وهذه المدارس هي :-

— المدرسة النضيبانية وقد أنشأها عحاس بن عبد الملك (توفي سنة ٦٤٣) وجعلها وقفا على من يكون «أمير الحنبالية» (٥٤).

— مدرسة الصاحبة ربيعة خاتون بنت أيوب (أخت صلاح الدين) وقد بنيت سنة ٦٢٨ للحنبالية وتوفيت صاحبها سنة ٦٤٣ (٥٥).

— المدرسة البهنسية أنشأها أبو الأشبال الحارث البهنسي وزير الملك الأشرف موسى للفقهاء الشافعي وقد وقف عليها كتبه مع أوقاف كثيرة ودفن بها حين توفي سنة ٦٢٨ وكان من مدرستها ابن خلكان (٥٦).

— المدرسة الأتابكية التي أنشأها تركان خاتون بنت اتابك الموصل وزوجة الملك الأشرف موسى وقد وقفها حين توفيت سنة ٦٤٠ (٥٧) وقد درس بها بين من درس العلامة الأرموي، وبهاء الدين السبكي.

وأما المدارس الحنفية التسع فهي :

— المدرسة الجركسية أنشأها الأمير فخر الدين جهار كس أحد قادة صلاح الدين ودفن بها سنة ٦٠٨ وماتزال موجودة و يسمى باسمها الحى التي هي فيه (٥٨).

— المدرسة المقدمية (البرانية) وقد أنشأها الأمير يوسف بن المقدم سنة (٥٩) ٦١٨ (٥٩)

(٥٤) الثلاث ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥.

(٥٥) الثلاث ج ١ ص ١٥٦ — ١٦٣ وللصاحبة تراجم عديدة منها لدى ابن خلكان وابن كثير والصفي.

(٥٦) الثلاث ج ١ ص ١٢١ — ١٢٤.

(٥٧) الثلاث ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣.

(٥٨) الثلاث ج ١ ص ١٣٥ — ١٣٨.

(٥٩) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٠ — ١٤١.

بن الملك المعادل الأيوبي سنة ٥٢٩ للحافظ عبد الله بن تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (٤٩). الذي ولد سنة ٥٨١ ورحل في الآفاق يطلب الحديث في العراق وخراسان ومصر والحرمين واشتهر بالورع والحفظ وشارك في الجهاد وقد توفي قبل الفراغ من بناء المدرسة سنة ٦٢٩ التي استمرت للحديث من بعده.

— دار الحديث العامة: وقد بنيتها في غربي قاسيون العامة أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي وأوقفها على أهل الحديث وكانت محدثة ولها مؤلفات كما كانت من أهل اليسار الكثير وقد تزوجها الملك الأشرف صاحب حمص (٥٠).

— دار الحديث الناصرية: وقد أنشأها سنة ٦٥٤ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي بن صلاح الدين الأيوبي ملك دمشق وجعل فيها رباطا وتربة له فلم يدفن بها لأنه قتل في سنة ٦٥٩. بيد الغول (٥١).

٢) جامعان جديدان :

جامع الماردانية: بين البساتين على نهر ثوراجنوب الصالحية (وهو في الجسر الأبيض اليوم) وفيه المدرسة الماردانية أيضا. وقد أنشأتهما أختا خاتون (بنت قطب الدين صاحب ماردن) زوجة الملك المعظم صاحب دمشق. أنشأت المدرسة والجامع سنة ٦١٠ ووقفته صاحبه سنة ٦٢٤ (٥٢).

— جامع الركنية: وهو في شرق الصالحية فوق قرية الميطور أنشأه ركن الدين منكورس الحنفى وأوقف عليه أوقافا كثيرة وجعل لنفسه فيه تربة دفن فيها وما يزال الجامع قائما. وعلى اسم صاحبه يسمى الحى كله اليوم باسم حى ركن الدين (٥٣).

(٤٩) انظر ترجمته لدى ابن رجب ذيل طبقات الحنبالية ٩٥/٢ — ٩٧.

(٥٠) المصدر نفسه ١ ص ٨٤ — ٨٥.

(٥١) الثلاث ج ١ ص ٨٨ — ٩٣.

(٥٢) الثلاث ج ١ ص ٦١ — ٦٢ وابن عبد الهادي شمار القاصد ص ٢٤٩.

(٥٣) الثلاث ج ١ ص ٤٩ — ٥٢ محمد بن كنان — المروج السنسية ص ٢٧ ابن عبد الهادي — شمار القاصد ص ٢١٨ و ١٤٩.

كى توارى المدينة الأم وقد أنشأه الأمير سيف الدين بن يوسف القيمرى الكردى المتوفى سنة ٦٥٤ وأوقف عليه الأوقاف الواسعة وهو ما يزال قائماً الى اليوم بواجهته الرائعة (بجوار جامع الشيخ محى الدين بن عربى الى الغرب) وبالقرب منه قرية الأمير نفسه الذي أعطى اسمه للحى باسم الشيخ قيمر. يقول ابن عبدالمادى عن المارستان أنه «ليس في الدنيا أحسن منه» وهو يطل على بساتين الصالحية ونهر يزيد تحته وفيه في صدره ايوان عظيم وعلى طرفيه قاعتان واسعتان تشرفان على البساتين وفيه قاعتان أخريان للمسهولين من المرضى: قاعة للرجال وأخرى للنساء وحاصل في شرقه معبد للأدوية من شرابات ومعالجات وأكحال وأشياف (أى أدوية العين) وفي جانب ذلك مطبخ للمزورات (طعام المرضى) وفي غربه قاعة للمجانين وبجوارها حاصل للفلال التي ترد اليه من أوقافه الكثيرة. وفي وسطه بركة واسعة يأتيا الماء بناهورة مركة على نهر يزيد فهي لا تنقطع عن الدوران. وكان للمارستان طبيب وكحال وشراباتي وعامل وشارف (مدين) وخدم للرجال والنساء ومخفات لحمل المرضى.

(٥) بدء انتشار زوايا الصوفية: وقد تنبه الزهاد والصوفية الى موقع الصالحية وبركانه وديب العمران فيه فبدأ في هذه الفترة الأيوبية انشاء الزوايا فيه وبعد منها فقط أربع زوايا: الزاوية الملكية التي بنيت سنة ٦١١ تحت كهف جبريل والغرثية قبيل سنة ٦٢١ والزاوية الديورية قبيل سنة ٦٢٩ والأرموية سنة ٦٣١ التي تفرقت في الصخر (١٨) وكان لكل واحدة منها الزاهد الذي اشتهر به بكراماته. لكن هذه الزوايا سوف تزداد الى عشر قبل نهاية القرن السابع. وكان لهذه الزوايا أوقاف وبعضها كان من الغنى الوفى بحيث يقدم الأظعمة للقراء في بعض أيام الأسبوع وفي رمضان والعديد من كالأزوية الملكية.

(٦) اعداد من التريب الفخمة: ونصف التريب التي أقيمت في الصالحية انما بنيت في العهد الأيوبى (٣٢ من ٦٤ تربة) وقد بنى منها ماين سنة ٦٠٠

(٦٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.
(٦٨) انظر القلائد ج ١ ص ٢٠٧ / ١٩٧ / ١٩٣ / ١٩٢ بالترتيب.

— المدرسة المظفمية غرب الصالحية وقد أنشئت سنة ٦٢١ بناها الملك العظيم

عيسى صاحب دمشق وكان مولماً بالفقه والأدب والشعر (١٠).

— المدرسة الشبلية وقد بناها على جسر نهر ثورا سنة ٦٢٣ الأمير الطواشي شيل الدولة الحسامي ودفن فيها سنة ٦٢٦ (١١).

— المدرسة العلمية في أقصى شرقي الصالحية بناها الأمير علم الدين المظفي سنة ٦٢٨ وكان فيها عشرة قراء أقصى

— المدرسة الميطورية وكانت في جوار العلمية الى الغرب وقتها فاطمة خاتون بنت السلار سنة ٦٢٩ (١٢).

— المدرسة القاهرة وكانت على حافة نهر يزيد غربى المدرسة العمرية. أنشأها الملك القاهر اسحق ابن الملك المعادل (وهو شقيق الملك العظيم لأبيه) في حدود سنة ٦٣١ (١٣).

— المدرسة العزيزية بجوار المدرسة المظفمية في أقصى غرب الصالحية وقد أنشأها الملك العزيز عثمان شقيق العظيم سنة ٦٣٥ (١٥).

— المدرسة البيغمورية غربى الصالحية (وموضعها اليوم في السكة فيما يسمى بين المدارس) وقد بناها الأمير جمال الدين يغمور الباروقي نائب دمشق حوال سنة ٦٥٠ - ٦٥٥ وقد توفي سنة ٦٦٣ (١٦).

٤ — البيمارستان القيمرى: الذي اكتمل به الجانب الصحى للبلدة الجديدة

- (٦٠) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٣ - ١٥٠.
(٦١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٢٤ - ١٣٠.
(٦٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١١٣ - ١٣٤.
(٦٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤١ - ١٤٢.
(٦٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥.
(٦٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣١ - ١٣٣.
(٦٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣٨.

والواقع أن الأحوال العامة للصاحلية وقبل أن ينتصف القرن السابع قد أضحى قطمة من حياة دمشق ومشابهة لها في التكوين والبنى والمطبات والمؤسسات إلا في النشاط الاقتصادي - التجاري وفي البراعات الحرفية فانها ظلت مقصورة بالطبع عن المدينة الأم بحكم اعتزالها في سفح الجبل وانغلاق الاتصال بينها وبين البلاد الأخرى إلا عبر دمشق وعدم وجود الطرق المباشرة إليها والخاصة بها إلا عن طريق دمشق بالاضافة الى ضيق مجالها أمام المجالات الدمشقية الواسعة. ولم يكن بإمكانها أن تتنافس المدينة التي تستأثر بالسلطة السياسية (ففيها نائب السلطنة وحاشيته ودواوين الدولة) وبالقوى العسكرية (ففيها مقر الجند) وبالحركة الاقتصادية الخارجية والداخلية (ففيها التجار الأجانب والنفادق والخانات والأسواق الغنية) وبالنشاط العلمي (التمثل في مدارسها وجوامعها ومساجدها وزواياها والأربعة...) لذلك كان محكوما على الصاحلية أن تبقى بلدة صغيرة محدودة التوسع وأن تبقى في الطابع العام بين المدينة والقرية وأن لا تجاوز حدود ذلك على أي حال .

ويكشف احصاء المؤسسات العامة فيها في العهد المملوكي (ما بين أواسط القرن السابع حتى نهاية القرن التاسع ومطالع الماشي) أنها تابعت الحياة الرتيبة التي تكونت فيها من قبل، وعلى الوتيرة السابقة نفسها والمؤسسات الأيوبية ذاتها فيما عدا مؤسسات النصف.

ولو استعرضنا مظاهر في الصاحلية من المؤسسات في القرن الثامن، - بما عدا المساجد - لا وجدنا إلا دارا واحدة للحديث (هي دار الحديث القلاسية التي بنيت سنة ٧٢٠) ومدرسة واحدة للأحناف (هي المدرسة الجمالية التي أسست سنة ٧٤٨) وخانقاه واحدة أو اثنتين (هما الخانقاة العزية في مطالع القرن ولخانقاة القلاسية أيضا سنة ٧٢٠) وزاوية واحدة (هي الزاوية الغسولية حوالي سنة ٧٣٧) أما الترب فقد استمرت في التزايد ونعد منها ١٨ ترية (٧٠). وثمة

(٧٠) انظر القلائد ج ١ ص ٨٥/١٥٥/١٨٩/١٩٦ بالترب ولما ترب فيجدها في الصفحات ٢١٤/٢١٨/٢٢٠/٢٢٦/٢٢٧/٢٢٩/٢٣٠/٢٣٦/٢٣٧/٢٣٩/٢٤١.

وسنة ٦٥٠ تسع وعشرون ترية ملأت الصاحلية قبابا وقبورا للأمرء والكبراء ومن أصحاب هذه الترب الأيوبية: الجبد البهنسي وزير الملك الأشرف توفى (سنة ٦٢٨) وجمال الدين عبد الرحيم بن علي بن الحسين بن شيت الاسناني القوصي صاحب ديوان الانشاء للملك المعظم (سنة ٦٢٥) والأمير سنقر الحلبي الصلاحي من قواد صلاح الدين (توفى سنة ٦٢٠) ومثله الأمير شرقي (جهار كس - سنة ٦٠٨) والأمير داود بن ايد كين الصالحي (توفى سنة ٦٣٠).

ومن العلماء: مذهب الدين الدخوار الطبيب المشهور (ت. سنة ٦٢٨) صاحب مدرسة الطب الدخوارية وعلى بن محمد بن عبد الصمد السخاوي شيخ النحاة والقراء والفقهاء في زمانه (سنة ٦٤٣) وقاضي القضاة عز الدين محمد بن عبد القادر المعروف بابن الصائغ (٦١١).

٤ - الصاحلية في العصر المملوكي :

حين أطل العصر المملوكي على الشام بعد سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ وهزينة المنول كانت الصاحلية قد استكملت حاجتها من النشاط العمراني والسكاني ومن المؤسسات العامة والأسواق، وقد بدأت فترة ذلك النشاط الواسع تهدياً وبدأ لفظ البياني لتطورها يأخذ المستوى المرتب المتعدي بعد أن كان في صعود عفيف خلال السنين أو الخمسين أو الستين السابقة. وفي الوقت نفسه كانت الأسرة القدامية قد أطلقت أقصى طاقاتها وجوبتها في كبار العلماء الذين أخرجتهم فأجبالها التالية من بعد سوف تحاول الوصول الى القمم السابقة التي وصلها الآباء والأجداد... ونلاحظ شيئا فشيئا تراخي التأثير بين الأسرة والبلد الذي أسسته، ولم يعد القداميون أعلام العلم الوحيدين في الصاحلية كما لم تعد الصاحلية بالمقابل وحيدة المذهب الحلبي أو وحيدة النشاط. وانفصل الطرفان فكل منهما سوف يتابع تطوره الخاص..

(١١) انظر القلائد ج ١ ص ٢١٤/٢١٧/٢١٩/٢٢٠/٢٢٦/٢٢٧/٢٢٩/٢٣٠/٢٣٦/٢٣٧/٢٣٩/٢٤٠.

ولم تقتصر النكبة على النهب وهدم الدور واحراق وأسر الناس وقتلهم ولكنها تناولت التراث الملمى أيضا فقد «نهب كتب كثيرة في الرباط الناصري و (المدرسة) الضيائية وخزانة ابن البرزوى وكانت تباع وهى مكتوب عليها الوقية...».

«وفعلوا بالمرّة مثل ما فعلوا بالصالحية وكذلك بداريا وبغيرها وتخصّن الناس منهم في الجامع بداريا ففتحوه قسرا وقتلوا منهم خلقا وسبوا نساءهم وأولادهم...» ومن من نكب وقاسى الشدائد العظيمة عز الدين أحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي الذي توفي إثر ذلك اول سنة ٧٠٠ (٧٢).

غير ان الصالحية استردت من جديد نشاطها بعد النكبة وزوال الرعب السرى وقد وصفها ابن بطوطه حين زار دمشق (وقد زارها سنة ٧٢٩ وسنة ٧٤٩) بأنها «مدينة عظيمة لما سوق لانظير له وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة أبى عمر موقوفة على من أراد ان يتعلم القرآن الكريم من الشيخ والكهول وتجزى لهم ومن يعلمهم كتاباتهم من الماكل والمليس . وبداخل البلد (يعنى دمشق) مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا (حنبلية) وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل...» (٧٣).

أما الفترة الثانية للصالحية فكانت بيد تيمور لىك يوم سحق دمشق سنة ٨٠٣ / ١٤٠١ ولم يكن ماحل بالصالحية مختلفا عما رواه ابن عربشاه وابن تغرى بردى حول نكبة المدن من قتل وذبح ومصادرة أموال ونهب متاع وهتك أعراض وحرقات فقد نزلت أقسام من جند تيمور بسفح قاسيون حتى قبة سيار وضرب تيمور معسكره هناك (٧٤). و يبدو أن مفاوضة الدمشقيين معه (ومع الوفد ابن

(٧٢) ابن كثير ج ١٤ ص ٨ وابن رجب ٢ ص ٤٦٥.

(٧٣) ابن بطوطه الرحلة (ط). دار صادر بيروت (١٩٦٤) ص ١٠١.

(٧٤) انظر ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٠ - ٢٤٨ وابن عربشاه عجائب القصور

(تحقيق علي محمد عسر ط . دار الانصار بالقاهرة سنة ١٩٧٩) ص ١٤٨ - ١٧٧ وقبة سيار

معروفة الموضع. وماتزال بقاياها قائمة في أعلى جبل المهاجرين.

بسمارستان شرقى الصالحية يدعى المارستان الشرقى كان مند ثرا في القرن الثالى ولعل بناءه يعود الى هذا القرن (الثامن) أو القرن السابق (٧٦).

وقد أصبحت الصالحية، مع دمشق بضمير بين فاسيتين أشد القسوة و بين الراحدة والأخرى قرن من الزمان. وقد حضر الضربة الأولى (ابن تيمية) وحضر الثانية (ابن خلدون)، وكان لكل منهما دوره الواضح في محاولة دفع النكبة عن البلد دون طائل .

كانت الأولى ضربة قازان سنة ٦٩٩ / ٣٠٠م آخر القرن السابع فقد نزل جيش التتار بدمشق يطوقها وبالرغم من أن المدينة استسلمت (عدا القلعة) وخطب فيها لقازان على منبر الجامع الأموى بحضور التتر (الجمعة ١٤ ربيع الثانى سنة ٦٩٩) إلا أن جيوش التتر وصاحب سيس المرابطة على جبل الصالحية شرعت في اليوم التالى في نهبا... .

وهكذا «نهب مسجد الأسدية فيها ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرافية واحترق جامع التوبة بالمقمية» (عند سور دمشق) واستمر العدوان يتصاعد اسبوعين.. يقول ابن كثير «وكان هذا من جهة الكرج والأرمن من النصرارى الذين هم مع التتار» «وسبوا من أهلها (الصالحية) خلقا كثيرا وجا غفيرا. وجاء أكثر الناس الى رباط الحنابلة فاحتاطت به التتار فحماه شيخ الشيخ (محمود بن على الشيبانى) وأعطى في الساكن مال له صورة. ثم أقحموا عليه ففسدوا منه خلقا كثيرا من بنات المشايخ وأولادهم فانا لله وانا اليه راجعون...»

«ورما نكبت دير الحنابلة في ثانى جمادى الأولى قتلوا خلقا من الرجال وأسروا من النساء كثيرا ونال قاضى القضاة تقى الدين أذى كثيرا ويقال انهم قتلوا من أهل الصالحية قريبا من أربع مائة وأسروا نحو من أربعة آلاف أسير...».

(٧٦) التللا ج ١ ص ٢٤٤.

التابع لدمشق. فقد أدت مضايقات الدولة المشرقية وتطور يقها في تلك الفترة لبطايا الامبراطورية البيزنطية حول القسطنطينية الى اضطراب طرق التجارة العالمية المستقرة منذ قرون بين الشرق والغرب. ثم احتل المشرقيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فانهمروا الوكالات التجارية وقبضوا على الجاليات الأجنبية المحتكرة للتجارة فرحل التجار والطرق معهم الى الشام ومصر بالأعداد الضخمة مع مصارفهم ولحانات والمخازن والفنادق في الوقت الذي نظمت فيه السلطة الملوكية عملياتها التجارية وضبطت عيار النقود. واستقبلت بالترحاب وفود المدن التجارة الإيطالية ونشاطات شركة جاك كور الفرنسية (٧٨) بين دمشق والاسكندرية وفرنسا والتجارة القطالونيين. ولكن هذا النشاط كله في نهاية القرن بسوء سياسة المماريك واحتكارهم كل شيء من جهة وباحتشاف امريكا وطريق الهند من جهة أخرى.. وانتهت البلاد الى النزلة والى الحكم المشرقي.

وقد أفادت دمشق من ذلك النشاط التجاري في القرن التاسع لأنها كانت البلد الثاني في المنطقة بعد القاهرة وفيها نياية السلطنة وكانت أسواقها مستوعبة للتجارة بين وسط آسيا وأوروبا. وقولها في مواسم التجارة تفصل الى حوالي ١٥ ألف رجل وفيها الوكالات والفنادق والقناصل.. (٧٩).

وقد ظهر تأثير ذلك كله في الصالحية حين عادت الى الظهور عدد من المنشآت التي اختفت في القرن السابق ومنها :

(١) داران من دور القرآن : ولأول مرة تعرف الصالحية هذه الدور التي كانت

(٧٨) كانت هذه الشركة تختركة تجارة فرنسا وأوربا مع السلطة الملوكية في تلك الفترة وما ٣٠٠ فرع في شرقي المتوسط وغربه مع أسطول ضخم وبلغ من ثرائها أنها كانت تقترض الملوك والدول الأموال الطائلة. وقد هرب صاحبها من غضب الملك سنة ١٤٥٠ ثم مات سنة ١٤٥٦ ولكن نشاطات الشركة استمرت بعده.

(٧٩) انظر Heyd : histoire du commerce du levant : Leipzig, 1925 T. I. P. 458

T. I. P. 458 Depping G. B. his. du commerce entre le levant et l'Europe, Paris 1830.

خلدون) كانت تنتم في هذا المعسكر على الجبل بينما كان جنوده يطوقون الشام وراء غوطتها من قفلا واديا الى الحولة الى سفح الصالحية التي فر الكثير من أهلها لاجئين الى أسوار دمشق.. و يبدو أن داود ادمور أمين الرسائل عنده نزل في المارستان القيموري وأعجب به وبرحائه وبنزهته (٧٥). بينما كان جنود تيمور يتوغلون في قري القوطة وفي الصالحية نفسها، و بنهون مايشاؤون .

وحين وزع تيمور أحياء دمشق ومناطقها غنائم لجنده كانت الصالحية بين الغنائم وأصاب مدارسها ومساجدها وكتبها والزوايا والرجال والنساء ما أصاب دمشق. وقتل بين من قتل من العلماء المحدث عمر بن محمد عبد المادي واخته المحدث فاطمة. وكانت النكية عامة. يقول ابن قاضي شهبة «ومن عجيب ماوقع ان المدرسة الميمنية بين الصالحية والقابون سلمت الى بعد الوقعة.. فهدمت (بعد ذلك) وأخذت آلتها» (٧٦) وقد عادت الصالحية تنهض مرة أخرى بعد النكية التيمورية بل عرفت بعض الأذهار أيضا فقد وصفها القلقشندي في كتابه صريح الاعشى الذي أتمه سنة ٨١٤ بقوله: «مدينة الصالحية مدينة ممتدة في سفح الجبل تشرف على دمشق وضواحيها ذات بيوت ومدارس وربط وأسواق وبيوت جبلة. ولكل من دمشق والصالحية البساقين الأنيقة يتسلسل جداولها وتغني دوحاتها والجواسق المحلية والبرك العميقة والبحيرات الممتدة والجوار المشوق والراحين المتأرجحة الطيب والفرابة الأجنبية والثمرات الشهية والأشياء البديعة التي تغني شهرتها عن الوصف و يقوم الإيجاز فيها مقام الاطباب..» (٧٧).

ويبدو أن الازدهار العام الذي شمل السلطنة الملوكية في القرن التاسع، وأفادت منه دمشق والقاهرة قد لاس بدوره الصالحية وهي الكوكب

(٧٥) الثلاث ج ١ ص ٢٤٤.

(٧٦) المصدر نفسه ص ١٤٢ نقلا عن ابن قاضي شهبة.

(٧٧) القلقشندي - صريح الاعشى ج ٤ ص ٩٤.

٦) الزوايا وقد بنى منها ٢٥ زاوية في الصالحية وإنما كثرت نتيجة انتشار المد الصومى بين الناس في تلك الأيام وتكاثر الفرق الصوفية وتنوعها وسيطرة العقلية الغيبية على الفكر. وقد كان في الشام ما يزيد على سبعين طريقة للمستصوفة (منها الرفاعية والقادرية (الجبلانية) والتشبيدية والكندرية والوفائية والبيزنسية..). ولها مشايخها وأذكارها ولמידون والأوقاف والطقوس ولهذا أقيمت في الصالحية ١٣ زاوية في القرن التاسع وخمس في العاشر.

وكانت أعظم هذه الزوايا كما يقول ابن عبد الهادي هي الزاوية الداودية التي أنشأها الشيخ أبو بكر بن داود الصومى (الجبلانى) الصالحى الحنبلى في حدود سنة ٨٠٠ ولم يتممها فأتمها ابنه من بعده «وجعلها من المعجائب» فقد وسعها وجعل لها الاوقاف ومنها حلال من الثلج لتبريد الماء.. وكان لها مدار للماء وصهر بروج ولبيان ومسجد ومسجد للفقراء ومغارة وميضأة وبیت للكتب الموقوفة ومساكن للنساء. ولها امام ومؤذن وتقيم واعظ وتوزع فيها ألوان الأطعمة ويقام بها الذكر كل ليلة ثلاثاء ويقصدها الناس من كل جهة (٨٦). فهي زوايا الصالحية التسع والعشرين.

٧) أربع ترب : لبعض الأمراء والتجار. ومنها تربة الأمير سودون (سنة ٨٤٨) والتربة الشهائية (سنة ٨٢٩) والخواجكية (سنة ٨٢٦). (٨٧).

ان هذه اللوحة للأصمعال العمرانية في الصالحية خلال القرن التاسع تكشف ان الاتجاه الفكري العام لم يكن باتجاه العلوم الدينية من قرآن وفقه وحديث ولكن باتجاه الفكر الصوفى الغيبى الذى غلب على كل اتجاه آخر والذي سيظل سائدا في العصر العثمانى التالي.

وعلى أى حال ففى مطالع القرن العاشر حين كان مصير الشام يتجه

(٨٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٥.
(٨٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٣/٢٢٢/٢٢٤ بالتقريب.

دمشق قد عرفها منذ القرن الخامس (دار القرآن الرشائية التي أقامها رشا ابن نظيف المتوفى سنة ٤٤٤) والتي انتشرت فيها في القرن الثامن خاصة. وهكذا ظهرت دار القرآن الاسعوية سنة ٨١٧ ثم دار القرآن الدلامية سنة ٨٤٧ (٨٠) والداران من ببناء بعض كبار التجار وماتزال الدلامية موجودة اليرم مع الجامع المتصل بها وكاننا في موضعين متقاربين من الجسر الأبيض وأول طلعة حمام المقدم).

٢) دار الحديث النظامية : شرقي الصالحية وقد أنشأها قاضي القضاة عمر بن إبراهيم بن مفلح الراميني المقدسي الحنبلى حوالي سنة ٨٥٠ أو قبل ذلك (٨١).

٣) جامع الحلاجية : وقد أقيم جنوب مدرسة أبي عمرو بناء الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك الاينالى سنة ٨٧٢ من الحجر (٨٢) وأقام بالقرب منه حماما. (وقد دثر الجامع بزوال أسقط مثمنته عليه سنة ١١٧٣ هـ ثم نقض الناس حجارته وأما الحمام فما يزال قائما).

٤) المدرسة الآمدية : للأحناف : كانت في شرقي الصالحية أنشئت قبل سنة ٨٢١ ولعل ذلك في القرن الثامن وبها تربة لصاحبها (٨٣).

٥) خانقاه وان اثنيان هما :

— الخانقاه الباسطية بالجسر الأبيض وقد أنشأها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش (الملوكية) والخوانق والكسوة الشريفة (٨٤) أيام الأشرف برسباي سنة ٨٣٦.

— خانقاه جامع الحاجب الأمير محمد بن مبارك (٨٥).

(٨٠) التلائد الجهورية - ج ١ ص ٧١ - ٧٣ و ص ٧٣ - ٧٥.
(٨١) التلائد ج ١ ص ٨٧ - ٨٩.
(٨٢) التلائد ج ١ ص ٥٢.
(٨٣) المصدر نفسه ص ١٢٤.
(٨٤) المصدر نفسه ص ١٨٤ - ١٨٦.
(٨٥) المصدر نفسه ص ١٩١ و ٥٤.

٤١ بشرا (٨٨) الى نهر يزيد المار على امتداد الصالحة ونهر ثورا المار كذلك دونه بقليل.

وكان سكان الصالحة أخطا من مختلف بلاد الشام والعراق والجزيرة وبخاصة من فلسطين معهم جماعات من الجند البطالين الاكراد والأتراك والخرزومية وهكذا نرى فيها حارات البواعة (من باعونة) في فلسطين او باعون من قرى عجلون والجرارة (من الجرارة قرب نابلس) والرادوية من (مردا) والبلاقنة (من بلقين) والنيامة من وادي التيم وحارة التغاية والخرزومية. كما نسمح من انساب العلماء بالأسعدي والبالي والسنجاري والتكريتي والحليلي والراميني (٨٩). وليس ثمة احصاء في المصادر يقدر عدد سكان الصالحة وقد لانكون مجازين اذا قدرناهم خلال عصر المماليك ما بين ٢٠ الى ٢٥ ألفا في اقل تقدير استنادا الى عدد الجوامع والحمامات (٩٠) وآبار الماء لأن المؤسسات الأخرى لا تكشف العدد السكاني.

(٨٨) استقينا هذه الاحصائيات من مجموع ما ورد في القلائد الجوزية عن مفرداتها وهي باعتراف المؤلف عديدة، بقدر علمه لا يقدر الواقع الذي يزيد عليها. وقد عدنا ما يتلخص منها بالمساجد والحمامات على ضوء ما ورد لدى ابن عبد المادي في ثمار القاصد (من ص ١٤٥ الى ١٥٩) حيث ذكر حارات الصالحة تفصيلاً مع مساجدها، وما جاء في رسالته عن الحمامات (مجله المشرق سنة ٩٤٩ من ص ٤٠٩ الى ص ٤١٩) كما أضفنا الى ذلك ما ورد في المرجع السندي حول الحمامات والأسواق والخانات والقصور ما نقله ابن كنان عن ابن طولون وابن عبد المادي وققد في النسخة المخطوطة الوحيدة التي نشر عنها كتاب القلائد. انظر في المرجع الصفحات ٣٠-٣١.

(٨٩) انظر مثلاً القلائد ج ١ ص ٢٤٩ وص ٢٥٣ وج ٢ ص ٤٥١ وثمار القاصد: ص ١٥٤ و١٥٨ و١٤٩ اعتباراً المسجد الواحد بين كبير وصغير بخام ٥٠ مصلياً وإذا كان مجموع المساجد والجوامع هو ١٤٩ فما المصلون هم حوالي سبعة آلاف شخص يتل كل منهم أسرة من ثلاثة أفراد أو أربعة (زوجة وولدين) فالجميع ٢٢ ألفاً الى ٣٠ ألفاً. واعتبرنا ان الحمام بخام يومياً ما بين ٣٠ - ٤٠ شخصاً في المتوسط (١٠ الى ١٥ أسرة من ٣ الى ٤ أفراد) فالجميع اليومي في حمامات الصالحة هو بين ٨٠٠ الى ١٠٠٠ شخص فإذا كانت دورة الاستحمام مرة في الشهر فان هذا يعني ان عدد السكان هو بين ٢٤ الى ٣٠ ألفاً تقريباً.

للموقع في أيدي المشمانيين سنة ٩٢٢/١٥١٦ بعد ثلاثة قرون ونصف القرن من انشاء الصالحة وتطورها كان هذا البلد يحوى في تخطيطه العام سوقاً رئيسية تمتد من الغرب الى الشرق، بجوار نهر يزيد، بعيداً قليلاً عنه. ومركزها في الوسط حيث يقوم على الجانبين من شمال السوق جامع الخناينة ومن الجنوب المدرسة العمرية وتتفرع منها صعدا في سفح الجبل ونزولا نحو النهر أرتة ضيقة تقسم الى ٣٨ حارة بعضها واسع كيف السكان مثل حارة الخياك (غربي جامع الخناينة وبها ١٧ مسجداً) وحارة الجامع نفسه (٦ مساجد) وحارة المدرسة العمرية (٦ مساجد) وهما في وسط الصالحة ومركز الحركة فيها، وثمة حارات الشبلية (٩ مساجد) والخراب (١٠ مساجد) والركنية (٧ مساجد) ورأس العلية الصاحبة (١١ مسجداً) وهي في شرق الصالحة حيث يسكن الأكراد الأيوبيون. ويجد في جنوبى الصالحة حارتي الجسر الأبيض والدلامية (١٥ مسجداً) وفي غربها حارات سوق شميم والسكة (١٠ مساجد) والفراخير (٧ مساجد) والبلاقنة (٦ مساجد). وتخطيط هذه الحارات كان عشوائياً وقد خضع لتضاريس السفح المنحدر ولأهواء التراكم السكاني (وما يزال ذلك واضحاً في مخطط الصالحة الى اليوم) وجميع الدروب، بما في ذلك السوق الرئيسية غير مبطة وتكتسحها في النشاء السبول الماطلة على السفح ولا يزيد البناء على طابقين سفلى، وعلى لأن معظم بيوتها طينية (من اللبن والخشب). وتقوم معظم الأبنية الهامة والجيرية على امتداد السوق الرئيسية أو بقربها. وتشمل هذه الأبنية دارين من دور القرآن وستة من دور الحديث وخمس جوامع ومائة وأربعة وأربعين مسجداً وست عشرة مدرسة (عدا المدارس في الزوايا والخوانق والمساجد) منها اثنتا عشرة للأحناف واثنان للشافعية ومثلهما للحنابلة وكان في الصالحة خمس خوانق ومارستانان (أحدهما مندني) و٢٩ زاوية و٦٤ تربة وسبعة وعشرين حماماً (عدا حمامات البيوت المعروفة) و ١٦ رباطاً للنساء والأرامل والأيتام عدا ما كان فيها من الخانات (١٣ خاناً) والأسواق (١١ سوقاً) والقصور (١٢ قصراً) والمعاصر والبساتين والطواحين والأسطبلات. وتعلو البلد غابة من الآذان والقباب تظهر فيها ٢٤ مثانة وعشر قباب كبرى عدا قباب التريب بينما حفر في أرضها الكثير جداً من الآبار وقد أحصى ابن طولون ما يعرف منها فكانت

ونستطيع أن نذكر من الحرفيين وأهل الحذامات والأسواق : صانعي الورق «فالورق للصاحلية - كما يقول ابن طولون - ولا يصنع إلا بها . ومنها يجلب إلى سائر الدنيا .» ولعل لاتساع العمل الملمى في الصاحلية أثره في نقل هذه الصناعة من دمشق إليها . وهناك في أقصى غرب الصاحلية على الجبل حارة الفواخير (أى صنع أدوات الفخار وكانت في مكانها نفسه حتى عهد قريب) ، وفي الأسواق سوق للقطّانين وسوق للفاكهة وبعض الماصر والحانات ومنها خان السبيل ، وأما الكارون فكان موقعهم في شرق الصاحلية على رأس الطريق المؤدية إلى حي العقيبة وباب الفراديس في دمشق . (١٢).

ويجب أن نضيف أخيراً إلى هذا وجود طبقة واسعة في الصاحلية من الزهاد والصوفية والمتكفين في الزوايا والأربطة يعيشون على هامش العملية الانتاجية وعملهم الأساسي هو العبادة ويتبعهم أعداد واسعة من الفقراء والزهّدين والمطلين الذين يعيشون على فئات الموارد الوقيفة .

ويبدو واضحاً بعد هذا كله ان هذا البلد الجديد قام وظل يقوم في ثورته العامة لأعلى انتاجه المحلي (فهو - باستثناء الورق - انتاج محدود ببعض الخضار والفواكه واللورود والقليل من الحبوب ولا يقوم أبداً بحاجات الجماعة السائدة) ، ولكن على ما كان يرد الصاحلية ويتدفق فيها من أموال الهبات والهدايا والنفقات للبناء من ريع الأوقاف الكثيرة الموقوفة على مؤسساتها الدينية والعلمية والصوفية فالبلد كان منذ تأسيسه الأول على يد آل قدامة ، وظل بعد ذلك معهم ومع من انضاف اليهم فيه ، ذا اقتصاد طفيل مستعار وهو يتفرد بهذا دون الضواحي والأرباض الأخرى المسائلة له حول دمشق كإزرة وداريا فقد كانت هذه القرى الواسعة أراضيها الزراعية التي تقوم باقتصادها ولم يكن فيها من المؤسسات

(١٢) انظر في ذلك كله بالترتيب ، القلائد ١ ص ٣٧٦ ثم ابن عبد الهادي - ثمار القاصد ص ١٥٧ و ١٥٨ ص ١٤٥ ورسالة الحمامات (في المشرق) ص ٤١٦ ثم ثمار القاصد ص ١٥٦ و ص ١٥٧ وأخيراً النعماني - الدارس ٢/ ٢٤٥ . وانظر في الصناعات دمشق رسالة (الحسية) لابن عبد الهادي المنشورة في المشرق المجلد ص ٣٨٤ - ٣٩٠ .

والطبقات البارزة في المجتمع الصالحاني كانت طبقة العلماء والنصوفة والعقهاء والعاملين في المجال الديني وفي تدريس العلم وطلبه لأنهم يتلون الاتجاه العام في اهتمامات البلد . والأسماء التي حفظتها كتب التراجم من كبار أهل الصاحلية في العصر المملوكي تقسم فيما احصيناه حوالى الثلاثين من المحدثين والمحدثات وقرابة الستين من السندين والحفاظ وثلاثين آخرين من العلماء والنقضاة وحوالى العشرين من الزهاد ولا تتل هذه الأرقام سوى الذين فرضتهم سمعتهم على مؤلفي الطبقات والتراجم وقد سكن الصاحلية أيضاً عدد من أفراد الدولة (١١) كما سكنها عدد من كبار النقضاة وبعض التجار (الخواجهكية) وبعض الملاكين (كبنى القلائد) كانوا يتقسمون فيما بينهم إلى مجموعة من الأسر البارزة المتخصصة فشمة أسر الشيخ القداميين وغيرهم وأسرة العلماء والنقضاة وأسرة التجار وكلها متميزة معروفة .

على ان هذا لايعنى عدم وجود طبقات واسعة من العامة تكمل هذه الطبقات المميزة وتشكل أعضائها في العدد وتقوم بالانشغالات الاقتصادية الحيوية للبلد . وإذا كانت عزلة الصاحلية قد منعت من وجود طبقة تجارية هامة فيها فقد كان اقتصادها يقوم على الطبقات العامة والحرفية كالمالدين في الطعام (الأوران والطواحين، والمخابز، والجزارة وبعضهم كالمزادة كانوا يذبحون الجواميس) وباعة الخضار والفواكه وهي كثيرة في الصاحلية لا تقصاها المباشريين وباعة الحبوب وأصحاب المهن والحرف (البناء، النجارة، البيطرة، السروج، الجياكة والقماش وهي «مائة صنف») الورق . الحداة، الدباغة، الخياطة، الصباغة، الطبابة . بالإضافة إلى الجرائحين والشعاعين والجيارين والبارزين .) . والعامل في الحداة العامة (حمولة، سقاية، دلالة، قبان، سمسرة...) لكن الطبقات الأخرى علماً أو سلطة أو مالا كانت تحجب هذه الطبقات وإن كانت تقيم حياتها العامة على نشاطاتها .

(١١) انظر مثلاً القلائد ج ١ الصفحات ٢٦٩ - ٢٧١ وانظر في تفصيل أسر الصاحلية وأسماها المروج ص ٦١ - ٦٤ .

الدراسة الدينية والتدريس عند الأجيال التالية من رجال الأسرة وأقرانها مهنة من المهنة للعيش المحترم وتحويلوا إلى الشهرة بالوظائف الدينية الكبرى وتولى القضاء والشيخات ونظارة الأوقاف والحلابة والتدريس بالمدارس وحمل الألقاب الضخمة وضعت نشاطاتهم في التأليف وتظلوا بكرامات أجدادهم السابقين حتى صار كل هم فروع الأسرة تخريج الشيخ الموفين قرابة قرنين.. إذا تجاوزنا هذه الملاحظة الأساسية وجدنا في تاريخ الأسرة المقدسية عددا من الملامح المميزة:

(١) لم تكن هجرة الشيخ أحمد الأول مع أهله هي التي كونت جبهة المقادسة في الصالحية. ولا كانت الهجرة الوحيدة. والواقع أن الهجرة من منطقة الجماعليات إلى صالحة دمشق استمرت بأعداد قليلة ولكنها مستمرة خلال كل تلك الفترة التي نمت فيها مكانة الأسرة وفت معها الصالحية ما بين القرنين السادس والسابع. كان ثمة دون انقطاع خط متصل دائم من المهاجرين يتحرك ما بين نابلس ودمشق والمكس. وكان بعض هؤلاء يأتي لطلب العلم والعودة وهم الأقارب. أما الكثير منهم فكان يأتي للاستقرار أو كان يجذب إلى الجو الصالحى الفهم بالعلم والحيوية والاحترام وامكان المعيشة الحسنة وكان بالنتيجة يستقر ويستدعى بالتدريج أهله وينتقل إلى البيت والحارة والمسجد الخاص. ولم يؤثر تحرير فلسطين وبيت المقدس على يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ على هذه الهجرة، لاني دفع المهاجرين السابقين إلى العودة لأراضيهم ولا في إيقاف حركة اللاجئين. ولعل السبب هو أن المجموعة المقدسية وجدت في مستقرها الجديد جوا من المعيشة أفضل، في الوقت الذي وجدت فيه حياتها هدفاً أجلاً وأسمى. لم تعد حرائة الأرض تغريهم مادامت حرائة الكتب بالعمون خير عند ربك جزاء وأفضل مقبلاً دنيا وديناً. كما كان مابلغة السابقون من المكانة في الجاه والبسطة في العيش أكبر اغراء يسادي اللاجئين. ولم يكن القداميون ليرفضوا هذا ان لم يكونوا بالمكس يشجعونه لأنه قوة لهم وبرهان على نجاح رسالتهم الدينية. وهكذا انتقل وظل ينتقل بالتدريج مجتمع قروي كامل من تلك البقاع الفلسطينية (الجماعيات) إلى سفح قاسيون بدمشق ويتحول على ذلك السفح من العمل الزراعي إلى النشاط

والنشاطات والتكاثر الديموغرافي ما تحتاج معه إلى التمويل الخارجي.

وقد دخلت الصالحية، مبكرة، على ما يظهر في النظام السياسي العام للدولة وبلغ من شأنها أن كان حاكمها، في أواخر العهد المملوكي يحمل رتبة «داوآدور السلطان» وهي إحدى الرتب الكبرى السبع في السلطنة. وكان للصالحية كذلك وال ولها محتسب ولدينا بعض أسماء هؤلاء وأولئك من المتأخرين. وكان في الصالحية «محكمة فيها نحو ثلاثين قاضياً من المذاهب الأربعة» كما كان ثمة جهاز للحراسة الليلية في عجلات البلدة «وكان لكل عملة من هذه المحلات رئيس يجرسها (مع) المسس يسهرون الليل.. خوفاً من مؤذ أو عدو». (١٢).

٥) آل قدامة والصالحية المملوكية:

تواريخ الأسر، سواء كانت هذه الأسر سياسية أم تجارية أم علمية تتشابه في ظاهرها واحدة هي ذلك الخط البياني الذي يتصاعد مع الجبل المؤسس نشاطاً وجهاداً وتمكيناً وتكويناً معنوي أو مادي أو كليهما ثم يعتدل الخط ويستقر ويشي في اتجاه أفتى متمثال فترة تطول أو تقصر ثم يبدأ الخط بالهبوط التدريجي أو السريع وتعيش الأسرة على أجدادها السابقة قبل أن تنطفئ شمعها الأخيرة. وأسرة آل قدامة دخلت عصر المسالك وهي أسرة كبرى من أسر العلم. كان وراءها مائة سنة من الجهد وسهر الليل والالام والاعمال والصعود لذلك كان مهمها في المرحلة التالية المحافظة على القمة التي وصلتها وعلى المواقع التي كسبتها..

وإذا نحن تجاوزنا هذه الملاحظة الأساسية وهي أن آل قدامة الأوائل الذين ظهرت في ما بين القرنين السادس والسابع كانوا أكثر شهرة بسعة العلم وبكثرة المؤلفات وبعمق التدوين والرهف حتى نسبت إليهم الكرامات بينما صارت

(١٢) انظر القلائد ج ١ ص ٢٧٢ و ص ٢٧١ و ص ٢٦٨ وانظر أيضاً المروج ص ٣٥.

الملي .

وبينما هاجر عبد الواحد بن علي بن سرور، صهر آل قدامة معهم الى دمشق بقي ابن عمه نعمة بن سلطان في بلده وأطلعت أسرة ابنه عبد المنعم بن نعمة مجموعة علماء وقضاة نابلس في القرنين السادس والسابع ومن هؤلاء جال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن عبد المنعم (ولد وتوفي في نابلس ٥٩٤ - ٦٥٦) وأخوه من قبله يوسف تقي الدين (٥٨٦ - ٦٣٨) وشمس الدين عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المنعم إمام نابلس سبعين سنة (توفي سنة ٧٣٧) وأحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم (الذي توفي بدمشق سنة ٦٩٧) مفسر الأحلام والرؤيا. وبراheim بن عبد الرحمن الفتى نابلس (توفي سنة ٧٣٧) وغيرهم كثير.

٤ - لم تقتصر المعجزة على الأسرة القدامية وأقر بانها وأهل القرى في منطقة نابلس وغيرها ولكنها اجتذبت أيضا العديد من أهل المدن الفلسطينية المختلفة من نابلس والقدس خاصة (من أمثال عبد الدائم النابلسي المتوفي سنة ٦٦٦ واسماعيل بن ظفر المنذرى المتوفي سنة ٦٣٩ وعبد الرحمن بن احمد بن مفلح المقدسي المتوفي سنة ٦٨٩) ومن عسقلان وصفد والخليل والرامه وغيرها وقد تكاثروا بوضوح في الصالحية خلال القرن السابع وظهر منهم العلماء والمحدثون البارزون .

كما اجتذب آل قدامة أيضا بحر كتهم العلمية النشطة وسمعتهم الدينية علماء الحنابلة وطلاب المذهب من بغداد خاصة ومن حران واربل وبالس وأخلاط وغيرها فجاءوها وشاركوا في نشاطات المركز الخليلي الصالحى وفي سمعته العلمية. ولعل من أبرز هؤلاء ابن تيمية (أحمد عبد الرحيم ٦٦١ - ٧٢٨) المجتهد المشهور والحسين ابن المبارك الربيعي البغدادى المسند (المتوفي سنة ٦٣١) وبراheim بن علي الواسطي مسند الوقت (المتوفي سنة ٦٩٢) واسماعيل بن محمد الفراء (سنة ٧٢٩) وبدر الدين محمد البطائحي (سنة ٧٢٦) وابن رجب أحمد البغدادى الامام

(١٤) انظر ترجمة لدى شذرات ٢٧٨/٥ والذهبي - تذكرة الحفاظ (ط . حيدرآباد) ج ٤ ص ٢٣٣ وانظر ترجمة أخيه لدى ابن رجب ٢٢٧/٢ .

٢) نتيجة لهذه الملاحظة السابقة نجد أن آل قدامة لم يكونوا وحدهم في ذلك الجهد العلمي الطويل الذي تحقق في الصالحية خلال عدة مئات من السنين. ولكن مجموعة من الأسر الحنبلية القريبة لهم في جاعيل وماحولها قد شاركت في ذلك الجهد وبرز منها، كما برز من آل قدامة، وبثأثيرهم وتحت رايته، عدد من العلماء يرتبطون مع الأسرة القدامية - الأم بالروابط العائلية المتفاوتة وقد حملوا مثلهم لقب القادسية وتكون من هؤلاء وأولئك وعن التحق بهم أيضا من بيت المقدس نفسها جماعة علمية قوية واسعة النشاط سواء في عدد رجالها البارزين أو في كثرة وتنوع أعضائها العلمية والدينية والحكومية وأبرز تلك الأسر خس أوست: ثلاث منها لصيقة بآل قدامة :

الأول : آل عبد الهادي وجدهم يوسف بن محمد بن قدامة هو شقيق الشيخ أحمد المهاجر الأول لدمشق .

الثانية : بنو سرور بن رافع الجماعلي و يرتبطون مع آل قدامة برابطة المصاهرة. الثالثة : بنو عبد الواحد بن أحمد السعدى وهم بدورهم أصهار في آل قدامة . وهناك ثلاث أسر أخرى ترتبط مع آل قدامة بروابط عائلية عديدة ولكنها كانت جزءا من الكوكبة المقدسية في الصالحية هي: أسرة المرادى وأسرة راجح وأخيرا الأسرة التي برزت في القرن الثامن: بنو مفلح الراميني.

٣) لم يقف تأثير آل قدامة على موقعهم في الصالحية ولكنه انعكس أيضا على موطئهم الأصلي في نوع من رد الفعل العائد. وإذا كانت جاعيل قرية صغيرة فقد تبادل آل قدامة التأثير والتأثير مع عاصمة المنطقة الفلسطينية نفسها: نابلس. وظهر للأسرة القدامية فرع نابلس، مشى على خط آل قدامة العلمي في الصالحية وتعاون معهم التعاون المستمر. وأطلع كما أطلعوا مجموعة من العلماء والشيخ والقضاة أقامت المركز العلمي الخليلي - القدامي في نابلس .

وهذا الفرع النابلسي كان من آل سرور بن رافع بن حسن الجماعلي

القرىء المحدث (توفى سنة ٧٧٤هـ) (١٥).

واجتذب آل قدامة الى هذا وذاك كبار علماء المذاهب الأخرى وبخاصة الشافعية وقد أتى الصاحبة العديد منهم: من أمثال الحافظ العراقي (عبد الرحيم بن الحسين التوفى سنة ٨٠٦هـ) والذهبي (محمد بن احمد) التوفى سنة ٧٤٨هـ) المؤرخ المشهور وابن الزكي (يوسف بن عبدالرحمن التوفى سنة ٧٤٢هـ) حافظ البوقت وابن فهد المكي (عمر بن محمد التوفى سنة ٨٥٥هـ) وابن حجر المستقلاني (احمد بن علي التوفى سنة ٨٥٢هـ) خاتمة الحفاظ الكبار وابن الجزري والستري كما (احمد بن علي التوفى سنة ٨٥٢هـ) خاتمة الحفاظ الكبار وابن الجزري والستري كما توافد اليهم جمع من الزهاد وأهل التصوف. وإذا كان أبرز المتصوفة الوافدين هو يحيى الدين بن عربي الصوفي المشهور (التوفى سنة ٦٣٦هـ) وعلى قبره هناك جامع معروف باسمه فان مشايخ الطرق الصوفية الشيعية لم يكونوا أقل شأنا وخطرا ومنهم البيهقي (عبدالله بن عثمان التوفى سنة ٦١٧هـ) وكانوا يسمونه أسد الشام لقوته وزهده. وأبو بكر بن فتيان المعروف بعروك (توفى سنة ٦٧٢هـ) وابن قوام (أبو بكر بن قوام بن علي الباسي التوفى سنة ٦٥٨هـ) وغيرهم ممن زخرت بزواياهم أزقة الحى وحاراته الى اليوم (١٦).

٥) اهتم آل قدامة ومن عمل معهم في مركز الصاحبة العلمي بدراسة ونشر المذهب الجنبلي. الا ان عملهم هذا المذهب عدة قرون كان يستند دوماً، وحسب السنة التعليمية المتبعة يومذاك، الى قاعدة واسعة من دراسة العلوم الدينية واللغوية المختلفة وقد عملوا عليها جميعاً وبرزوا في الكثير منها. واستعراض الاهتمامات التي شغلتهم تبين أنها كانت كلها ضمن هذا الإطار. فقد عملوا في تلقين القرآن الكريم وفي القراءات والتفسير كما اهتموا جميعاً كل الاهتمام بالحدِيث النبوي وحفظه متناً وسنناً وبدراسة صحيحه وضعيفه وغيره ومشكله ومعانيه وكان من

(١٥) أنظر في ترجمة المبارك: شذرات ١٤٤/٥، والراسطى - الدارس ٨٢/٢، وللرؤى: شذرات ٨٩/٦ وابن رجب: شذرات ٣٢٠/٦.

(١٦) أنظر في ترجمة البيهقي شذرات ٧٣/٥ - ٧٤ وترجمة عروك: الثلاث ٤٠٥/٢ و٤٠٧ ولابن قوام: شذرات ٣٩٥/٥.

مهموهم معروفة رجال الحديث في اسمائهم والكنى والأعمار والنسب وفي الجرح والتعديل. وكان من لوازم هذا كله دراسة اللغة والنحو والشعر والأنساب فعملوا على ذلك. واستنادا الى هذه العلوم ونتيجة لها جاء بروزهم في الفقه والأصول والفروع والخلاف والمناظرة فمنهم أعداد كبيرة من القضاة... واستتبع هذا أن بعضهم برز أيضاً في قضايا الارث فكان منهم أكثر من فرضى باربع ومن حاسب وعارف بالجبر والمقابلة. وبعضهم كذلك نظم الشعر وعمل في التعبير وتفسير الاحلام وبعضهم (مثل الموفق) برع في الحساب والنجوم والمنازل.

٦) وجميع هؤلاء المقادسة عملوا في التدريس، في مدارسهم ومساجدهم بالصاحبة وفي غيرها من مدارس وجوامع الأمصار بدمشق والقاهرة والاسكندرية وفي بغداد ونيسابور واربل والموصل والحرمين وبالس وبعلبك ودمر والرجبة والحديثة وازرع ودوما وبعضهم ظل يدرس نصف قرن (كأبي عمر) وبعضهم ظل يحدث سنتين سنة (مثل شمس الدين عبدالرحمن بن محمد بن قدامة) ومثل فخر الدين علي بن أحمد السمدى (١٧) كما عمل الكثير في القضاء والقوى وبخاصة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة. وبعضهم ظل يفتى نيفاً وخسين سنة (مثل تقي الدين سليمان القداسي) (١٨).

٧) ومعظم هؤلاء المقادسة عملوا في التأليف. وقد توجهت مؤلفاتهم بخاصة الى الحديث النبوي في الدرجة الأولى وإلى مايتصل به ثم الى الفقه الجنبلي فكتبهم فيه هي اليوم من كتب المذهب الأساسية وإلى كتب الفضائل والمناقب، فضائل المدن والأشخاص والأعمال، ومناقب الصحابة وكرامات الزهاد والأولياء. وأخيراً الى المواضيع الدينية في الاعتقاد والتفسير والزهد وفي الانساب وفي المسائل الشرعية التفصيلية. وفيهم عدد من الشيوخ وصلت مؤلفاتهم الى خسين وستين كتاباً (مثل عبدالغنى المقدسي وشمس الدين محمد بن أحمد بن

(١٧) ابن رجب - ذيل طبقات ٣٠٥/٢ و٣٢٥/٢.

(١٨) المصدر السابق ٣١٥/٢.

بلغ أيضا ألف شيخ مثل عبدالله بن أحمد المقدسي (١٠١٢).

١٠) وكما كانوا يسافرون ويحرضون أبناءهم وتلاميذهم على الرحلة العلمية في الآفاق كانت الرحلة اليهم بالمقابل لأخذ العلم عنهم ودراسة مذهب ابن حنبل عليهم ناشطة واسعة ولا سيما في القرنين السابع والثامن للهجرة. وكان طلب العلم في الصاحلية يعني بصورة أساسية طلبه عليهم وأخذ المذهب الجنبلي عنهم فقد كان للمذاهب الأخرى (الحنفية والشافعية) أعلامها الكبار في مختلف أمصار الإسلام وبخاصة في دمشق والقاهرة مما يعني عن الرحلة لدراساتها في الصاحلية وقد بلغ بعضهم من العمر الطويل ما صار معه «مسند عصره» و«رحلة الدنيا» مثل عائشة بنت شمس الدين محمد (من آل عبد الهادي (١٠٤٤)) ومثل «فخر الدين» على السعدي الذي هرع اليه طالبو الحديث من أنحاء الدنيا يطلبون علو الاستناد لأنه «كان آخر من كان في الدنيا بينه وبين النبي (ص) ثمانية رجال ثقات» (١٠٥) يعني في السماع المتصل ومثل صلاح الدين محمد بن أحمد حفيد أبي عمر الذي صار «مسند الدنيا ورحلة عصره» وآخر من كان بينه وبين النبي (ص) تسعة رجال ثقات» قبل أن يتوفى سنة ٧٨٠/١٠١٦ ومن هذه الجماعة كذلك شهاب الدين المقدسي المتوفى سنة ٧١٠ الذي كان «مسند الشام» في عصره (١٠٧) أي الوحيد في علو الاستناد في الشام.

١١) شملت الحماسة العلمية أيضا نساء البيت القدامى، حريم القادسية، فأدخلتهن في الجوامع لعلوم القرآن والقراءات والحديث والفقه. وقد سمعن على العديد من أقرانهن الشيخ وعلى غيرهم كما سمع عليهن عدد من كبار علماء

(١٠٣) القلائد ج ٢ ٢٧٩ وابن رجب - ذيل طبقات ٤٢٦/٢ - ٤٢٧.

(١٠٤) القلائد ج ٢ ٢٧٨/٢.

(١٠٥) ابن رجب ٢٧٨/٢ نقلا عن الذهبي.

(١٠٦) القلائد ٢/٢٩٤.

عبد الهادي (١١٩) وقد «عد ابن رجب في الطبقات لشمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المتوفى سنة ٧٤٤ سبعين مصنفًا يبلغ التام منها - كما قال - ما يزيد على مائة مجلد...» (١٠٠). وقد سجل الجلال ابن عبد الهادي قائمة مؤلفاته بنفسه فبلغت ٦٠٠ مؤلف.

٨) واهتم القادسية بالكتب وانشاء المكتبات لأنفسهم ومؤسستهم فالكثير منهم يذكروا في ترجمته أنه حصل الكتب الحسنة وأنه عمل في كتابتها وفي الاستنساخ وتحصيل الأصول. وبعض ثروة المكتبة الظاهرية في دمشق اليوم في المخطوطات آتية من الكتب التي كان وقفها الضياء المقدسي على مدرسته ووقفها الآخرون على المدرسة العمرية. ومثله في ذلك الجلال ابن عبد الهادي آخر المثلين الكبار للأسرة (توفى سنة ٩٠٩) فقد وهب مكتبته التي تزيد على خمسة آلاف كتاب للمدرسة نفسها.

٩) ولا يكاد يوجد في هؤلاء القادسية من لم يسافر في طلب العلم على كبار الشيخ والحفاظ والمستندين. وبعضهم كان يطيل في الرحلة ويعمد فيها وقد امتدت أسفارهم إلى أصبهان وروم ونيسابور وبخارى وهراة وإلى بغداد واربيل والموصل وحلب وحران وإلى الحرمين للدراسة والحج وبخاصة إلى مصر والاسكندرية ودمياط حتى ان بعضهم استقر في القاهرة وبعضهم صار قاضيا للقضاة وشيخا للشيخ فيها رغم حنبلية وشافعية الناس (١٠١) (كمحمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المتوفى ٦٧٦ / ٢٧٧) وقد بالغ بعضهم في السماع على الشيخ والرحلة اليهم حتى بلغ عدد شيوخه عدة مئات وبعضهم زاد على ٥٠٠ أو ٧٠٠ شيخ (كفضياء الدين المقدسي وتلقى الدين سليمان القدامى) (١٠٢) وبعضهم

(٩٩) القلائد ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢١ وص ٣١٤ وابن رجب - ذيل الطبقات ١٨٨/٢ - ١٩٠ و ٤٣٧ - ٤٣٨.

(١٠٠) شذرات ١٤١/١ وابن السامع نقل النص عن الذهبي ولم نجد النص في ابن رجب وله ترجمة في

تذكرة الحفاظ للذهبي ١٥٠٨/٤.

(١٠١) ابن رجب - ذيل الطبقات ٢/٢٩٤.

(١٠٢) المصدر السابق ٢/٢٣٧ و ٣١٥ والدارس ٢/٣١٦.

روت صحيح البخاري عن ابن الزبيدي (توفيت سنة ٦٩٩) (١١٠) وخديجة بنت محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد (الوفاة سنة ٦٩٥) وعائشة بنت عيسى بن الموفى (توفيت سنة ٦٠٧) وخديجة بنت محمد بن محمود بن عبد المنعم المسند (المعروفة باسم حبيبة) (توفيت سنة ٦٩٩) (١١١) وهديّة بنت عبد الرحمن بن أحد المسند المعروفة باسم قضية (توفيت سنة ٧٩٨) (١١٢) وست العرب بنت محمد بن فخر الدين الصالحية، المسند المكثر (الوفاة سنة ٧٦٧) والأختان فاطمة وعائشة ابنتا محمد بن عبد الهادي (توفيت الأولى سنة ٨٠٣ والثانية سنة ٨١٦ وكانت قبل سنوات من وفاتها مسندة الدنيا ورحلة الدنيا) (١١٣) غير أن هذه الأسماء تغيب في بقية القرن التاسع مع الغيب التدريجي لأسماء الأسرة.

١٢) لم يكن العلم هو الميزة الوحيدة التي أعطت آل قدامة مكانتهم وسمحت لهم بالبروز الواضح في المجتمع الشامي والاسلامي ولكن التدين العميق كان الميزة الأولى والأقوى. الورع كان أول الجناحين اللذين جلاهم وكان المعلم الجناح الآخر. الانصراف الى الله كان «الصخرة» التي أقامت عليها الأجيال الأولى من المقادسة سمعة الأسرة وأتى المعلم ليكون الصخرة الأخرى. وقد تمثل ذلك التدين في أمرين: المبالغة في العبادة والمبالغة في الزهد ورفض الدنيا. وتقرأ في تراجم الأوائل منهم أن عبد الغني تقي الدين يصلي ثلاثمائة ركعة الى قبل وقت الظهر و يقوم نصف الليل فما يزال يتوضأ ويقرأ ويكي الى الصبح. (١١٤) وأن أبا عمر محمد كان كثير الصيام سفرا وحضرًا وأنه في آخر عمره سرد الصوم وكان يقرأ في الصلاة كل ليلة سبعمائة مرة ولا يقرأ جزءين من القرآن في الصلاة و يسجد سجدة طويلا ويصلي ويصلي في كل يوم ليلة اثنتين وسبعين ركعة نافلة و يصل

- (١١٠) شذرات الذهب ٤٥٤/٢٠٨/٢٠٧/٥ بالتزويد.
(١١١) انظر القلائد ٣٠٦/٣١٠/٣٠٧/٢ بالتزويد.
(١١٢) ابن العماد - شذرات ١٨٦/٦.
(١١٣) القلائد ج ٢ ص ١٢٧/٣٠٧/٢ بالتزويد.
(١١٤) ابن رجب ١٢/٢ وسيط ابن الجوزي - مرآة الزمان (ط. حيدر آباد سنة ١٩٥٢) ج ٨ قسم ٢ ص ٥٢١ والقلائد ٣٣٧/٢.

العصر وسجلت اسماءهم في معاجم الشيخ وفي كتب التراجم والعلقات وبرز بعضهم بوزر سامن فيه أو سبق الكثير من رجال المقادسة أنفسهم ومن غيرهم. والجو العلمي والاجتماعي العام في ذلك العصر كان مألوفًا فيه وجود عالما وشيخات يروون الحديث عدا الشاعرات والكاتبات، كما كان مألوفًا اسماعهن والسماع عليهن وقد ألف ابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١) والذي عاصر هجرة المقادسة الى دمشق وتوطنهم في الصالحية، «كتابا في من سمع منه من النسوان» (وكن نيفا وثمانين شيخة وبعد قرن ونيف من ذلك كتب فخر الدين على بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي مشيخة في كتاب (أسنى المقاصد وأعذب الموارد) وذكر في الجزء العاشر خمسا وعشرين شيخة بين مشايخه (١٠٨) وقد حملت الشيخات الإلقاب كالرجال في ذلك العصر ولكن كانت هن ألقابهن المعايير من ست الناس الى ست العراق الى ست البهاء الى جلال النساء الى ست العرب وأمة اللطيف وست الفقهاء وست المعالم... ولو استعرضنا كتب التراجم في القرن السابع والثامن مثلا لوجدنا أسماء حوالي ٢٥ سيدة دمشقية من حوالي ٧٠ من العائلات اللواتي فرضن اسماءهن على أصحاب تلك الكتب الا اننا نلاحظ ان الحنبليات منهن كن اكثر عددا بوضوح من الشافعيات. أما الحنفيات فأقل من الجماعتين. ونلاحظ أيضا أن سيدات الأسرة القدامية هن الغالبات أيضا بين الحنبليات، اللواتي كان منهن: رقية ورابعة ابنتا الشيخ أحمد وحبيبة بنت أبي عمر» (١٠٩) وآسية (أخت ضياء الدين) بنت عبد الواحد بن أحمد المقدسي المتوفاة سنة ٦٤٠ وكانت لا تكاد تدع قيام الليل) وسعيدة بنت عبد الملك من آل قدامة وكانت راوية للحديث (توفيت سنة ٦٤٠) وهديّة بنت عبد الحميد المقدسية التي

- (١٠٧) التميمي - المدارس ٣٨/٢.
(١٠٨) انظر على بن بليسان المقدسي: تخريج مشيخة الشيخ.. فخر الدين على بن أحمد.. مخطوط دار الكتب القاهرة بدقيق رقم (٢٤٨) حديث ورقة (٣٩) وقال بعد البسملة: ذكر ما تيسر جمع من مشيخة النساء سماعا وإجازة الشيخة الأولى.. ست الكنية (التي توفيت سنة ٦٠٤)..
الشيخة الثانية أم الفضل زينب.. وهكذا حتى الخامسة والعشرين..
(١٠٩) الشيخات الثلاث جاء ذكرهن في المخطوط السابق وفي غيره.

مواقف زملائهم العلماء منهم فانا نجد أن جواهر الناس والحكام قد عبروا عن نظرتهم اليهم :

أولاً : بالأخاف التي كانوا يوقنونها على دروسهم ومؤسستهم وقد ذكر ابن عبد الهادي أنه : «قل سنة من السنين تقضى (على المدرسة العمرية) الا و يصير اليها فيها وقف . فوقها لا يمكن حصرة» (١٢١) ومثل ذلك المدرسة الضيائية ودير الجبالة والجامع المنفري .

ثانياً : في تشييع جنازتهم فقد كانت مواكب تاريخية سجلها المؤرخون على أنها ظاهرات خاصة تلفت الأنظار في عدد المشيعين أو نوعيتهم (فهم يضمون الأمراء والأئمة والشيخ مع الخلق الكثير) أو في اقتتال الناس على الظفر جاء التفسير أو قطعة من الكفن للبركة :

فحين مات مثلاً أبو عمر «من وصل الى الماء الذي غسل به نشف به النساء مقانعهن والرجال عمانهم ولم يتخلف عن جنازته أحد من القضاة والعلماء والأعيان وعامة الخلق وكان يوماً مشهوداً .. وكان يوماً شديد الحر فأقبلت غمامة فأظلت الناس الى قبره وكان يسمع منها دوي كدوى النحل ولولا المبارز المتعد والشجاع بن عارب وشبل الدولة الحسامي (قواد الجند) ماوصل الى قبره من كفيه شيء وأما أحاطوا به بالسيف والديابيس .. وحزر من حضر جنازته فكنا نوا عشرين ألفاً» (١٢٢) وحين توفي عماد الدين ابراهيم بن عبد الواحد سنة ٦١٤ قال سبط ابن الجوزي «أخرجت جنازته الى جامع دمشق (الأموي) فما وسع الناس الجامع .. وكان يوماً لم ير الاسلام مثله . كان أول الناس عند مفارقة الدم ورأس الجبل الى الكهف وآخرهم بباب الفرائس (١٢٣) ولولا المبارز المتعد وأصحابه لقطعوا أكفانه وما وصل الى الجبل الى آخر

(١٢١) النعمي - المدارس ج ٢ ص ١١١ .

(١٢٢) ابن رجب - ٦٠٢ وسط ابن الجوزي ٥٥١/٢ - ٥٥٢ .

(١٢٣) أحد أبواب دمشق من جهة الشمال ويواجه الصالحية والقصور أن مركب الجبانة كان يبلغ حوالي ثلاثة كيلو مترات .

الضحى و يقرأ قل هو الله أحد ألف مرة (١١٥) و ابراهيم بن عبد الواحد (شقيق عبد الغنى) كان يطيل الركوع والسجود و يكثّر من قضاء الصلوات وربما قضى الصلاة الواحدة عن مائة سنة وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً و يكثّر من الدعاء بالليل والنهار (١١٦) وأن الموقف عبد الله بن الشيخ أحمد كان «كثير العبادة دائم السجود . لم ير مثله ولم ير مثله نفسه» (١١٧) وأن شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر (سريع الدفعة ، كثير الذكر لله والقيام بالليل ويصل بين العشائين .. كثير الدعاء والابتهاال ..) (١١٨) ولم تكن نساؤهم بأقل من الرجال في هذا كله فهذه آسية أخت ضياء الدين التي لا تكاد تدع قيام الليل وتلك الزاهدة حبيبة وثالثة هي خديجة المسعدة العبادة الكثيرة التلاوة وهكذا . ونسمع من جهة أخرى عن هؤلاء وأهلهم مبالغتهم في احتقار الدنيا . وأبو عمر كان يبقى في البناء بجهة بغير قميص ، يلبس الخشن و ينام على الحصير «وأنه لم يخلف ديناراً ولا درهما ولا قليلاً ولا كثيراً (١١٩) وأن شمس الدين محمد بن عبد الرحيم كان متقللاً من الدنيا .. وكان يخفر مكاناً في الجبل لبعض شأنه فوجد جرة مملوءة دنائير وكانت زوجته معه تعينه في الحفر فاسترجع وطم المكان كما كان وقال لزوجته هذه فتنة ولعل لها مستحقين لا يعرفهم وعاهدوا على أنها لا تشرب بذلك أحداً ولا تتعرض اليه» (١٢٠) و يذكرون عن غير هذا وذاك صفات تجعل من هذه المجموعة جيلاً خاصاً من الناس ليس كمثله جيل في اقامة الدين والقرب من الله .

وقد نجم عن ذلك أن «القادسة» أضحووا في اعتقاد الناس نماذج «دينية عليا» ونجد أصداء هذا الاعتقاد وصوره في عدد من الظاهر : فإذا نحن تجاؤزنا الطريقة التبجيلية التي صيغت فيها تراجمهم في كتب التراجم والتي تمكس حتى

(١١٥) انظر سبط ابن الجوزي - مرة ج ٨ ص ٥٤٧ وابن رجب ٥٢/٢ - ٥٤ .

(١١٦) ابن رجب ٩١/٢ .

(١١٧) ابن رجب ١٣٤/٢ وانظر القلائد ١٣٤١/٢ .

(١١٨) المصدر نفسه ٣٠٩/٢ .

(١١٩) ابن رجب ٥٤٢/٢ و ٥٤٣/٢ وسط ابن الجوزي - مرة الزمان ج ٢ قسم ٢ ص ٥٤٨ و ٥٥١ .

(١٢٠) المصدر نفسه ٣٢١/٢ والنعمي - المدارس ٩٦/٢ .

عمر وأُناه حضرا فتح القدس مع صلاح الدين (١١٨) وبعضهم حضر معركة ديمياط في الحملة الصليبية الخامسة (١١٩) للوعظ والتحرير على الجهاد وبعضهم ركب الخيل ولبس السلاح مع مشيخته وحضر القتال (مثل القاضي أحمد بن عبد الرحمن حفيد أبي عمر المتوفى سنة ٦٨٩ الذي شهد فتح طرابلس وطرد الصليبيين منها) (١٢٠) كما ذكر عن غير هؤلاء الاشتراك في الجهاد كفضياء الدين محمد بن عبد الواحد أو حضور الفتوحات كعبد الرحمن بن محمد شمس الدين وفخر الدين على بن أحمد بن عبد الواحد (١٢١).

وبعض آل قدامة كان يقوم بأعمال الاحساب لوجه الله فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولو أغضب ذلك أولى الأمر مثل تقي الدين عبد الغنى بن عبد الواحد الذي كان لا يرى منكرا الا غيره بيده أو لسانه وكثيرا ما شوهده يهرق الخمر ويكسر الشبابات والطنابير (١٢٢) ومثل عماد الدين ابراهيم بن عبد الواحد (شقيق عبد الغنى) الذي خرج مرة على جمع من الفساق فكسر معهم فضر يوه حتى غشي عليه (١٢٣) وأحمد بن عيسى الصالحى وابراهيم بن عبد الله القدامى وكل منهما كان «أمارا بالمعروف قولا بالحق» (١٢٤).

وتكاد لا ترى ترجمة واحد من هذه الجماعة الا وقد أعطى فيها من الصفات ما يجعله النموذج الدينى — الانسانى للآخرين وتتلخص هذه الصفات في الصدقة وحب الفقراء والخير وفي التواضع واللين والحياء، وفي جميل السيرة

- (١٢٨) ابن رجب — ذيل طبقات الحنابلة ٥٦/٢
(١٢٩) المصدر السابق ص ١٨٦
(١٣٠) المصدر السابق ٣٢٢/٢
(١٣١) ابن رجب — ذيل الطبقات ٢ ص ٢٣٧ ثم ٣٠٥ ثم ٢٧
(١٣٢) ابن رجب — ذيل طبقات الحنابلة ١٢/٢ — ١٣
(١٣٣) التلاذذ ٣٢٦/٢ وابن رجب ذيل الطبقات ٥/٢
(١٣٤) التلاذذ ٣٣٩/٢
(١٣٥) ابن رجب — ذيل الطبقات ٢٤١/٢ و ٢٧٨

السهار وتأملت الناس من أعلى قاسيون الى الكهف الى قريب الميطور لورمى الانسان عليهم الابرة لا ضاعت» (١٢٤) وتتعدد مثل هذه الصور الجنازية لعدد من شيوخ القادسية الآخرين وشيختهم (١٢٥).
تصعيد الاحترام لم الدرجة رؤية الناس الاحلام والنامات عن جميل مقامهم في الآخرة ولدرجة نسبة الكرامات الخارقة اليهم. وتقرأ في التراجم قصصا عديدة من خوارقهم ومكاشفاتهم (١٢٦).
وبعضهم صار عند الناس بل الشيخ قطب الوقت «ومن العلماء الربانيين» «و بركة المعصر» (١٢٧) وأحد أولياء الله .

على أن هذا الجو الدينى كله أخذ في التبدد بالتدرج بعد الأجيال الأولى. قلّ التهجيد وقيام الليل وقراءة القرآن والأورد وقت الكرامات بالطبع وإنما بقي لهم، منذ أواسط القرن السابع، التميز بالمعلم الذى ظل دعامة المقادسة قرنا آخر ثم تضاعف المعلم بدوره ليمتد لهم جاه «الوظائف الدينية» ومقامها... قرنا آخر قبل أن ينطفئ في الأسرة تألقها الأخير .

١٣ — ومعظم الأجيال الأولى من آل قدامة كانوا يعززون المعلم بالعمل ابتغاء الأجر والأسوة الحسنة فلمهم مشاركات في الجهاد : مثل ذلك أن أبا

(١٢٤) سبط ابن الجوزي — مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٨٨ وابن رجب ١٠٤/٢ ولما المبرز الذى ورد ذكره مرتين فهو الامير مبارز الدين سقر الحلي الصلاحى توفى سنة ٦٢٣ وقد ظل شحنة دمشق أربعين سنة (انظر ابن كثير — البداية والنهاية ج ١٣/١١٥ — ١١٦) وفي السنة نفسها توفى شبل الدولة كافور الحسامي (المصدر نفسه).

(١٢٥) انظر في ذلك مثلا ابن رجب ج ٢ الصفحات ١٠٤/٣٠٨/٣٣٨/٤٢٧
(١٢٦) انظر في ذلك سبط ابن الجوزي ٥٤٨/٢ — ١٧٨ و ٥٥١ — ٣٢٠ وابن رجب ١٦/٢ و ٦٤ و ١٠٠ و ٢٣٥ و ٢٣٧ و ٢٧٨... الخ.
(١٢٧) التلاذذ ج ٢ ص ٤٢٠ — ٤٢٦.

(١٢٨) انظر هذا اللقب لابي عمر ولعبد الغنى وضياء الدين... لدى ابن رجب ٥٨/٢ ص ٥ و ٢٢٧ و ٣٠٧ و ٣٠٨... الخ ولتلاحظ أن هذا الوصف انما يأتي من شيخ الحنابلة اكثر من غيرهم.

عبد الواحد (المتوفى سنة ١٢٧٦) وكان قد نزل مصر سنة ٦٤٠ وبلغ فيها منصب قاضي القضاة وشيخ الشيخوخة، وكانت تلك أول مرة يقول فيها حبلى هذا المنصب في مصر. وقد اتهم في ودائع أودعت عنده كرها ثم أخذت من بيته فاعتقل سنة ٦٧٠ في السجن سنين ثم أطلق فلزم منزله يفتى ويقرى حتى توفى (١٢١٦) وبالرغم من أن بعض هؤلاء القادسة كانوا لا يبهون للحكام كالذي روه من أن الملك العادل زار الشيخ بأمر وجماعة في خيمتهم، عند حصار القدس، وأمر عمر في الصلاة فما قطعها ولا التفت إليه ولا ترك ورد (١٤٠) وبالرغم من أن بعضهم كان منقطعا عن الحكم أو «عزوا عن المنصب» أو كان «متراضا عند العامة مترفعا عند الملوك» (١٤١) إلا أن الجبهة من رجال الأسرة كانوا على أحسن الصلات مع مختلف الحكام اعتبارا من نور الدين مرورا بالملوك الأيوبيين وانتهاء ببنوب السلطنة المماليك في دمشق كما كانوا على علاقات مرضية زملائهم شيخ المذاهب الأخرى وقد سمحت لهم هذه الصلات والعلاقات بأن يتلقوا من جانب السلاطات على الدوام، أحسن الاحترام وأجزل الجبات وأن يتولوا أعلى المناصب وأن ينعموا بين هذا وذاك ببرع الأوفاء المخصصة لوظائفهم ومنابرهم الخبيثة. وحتى الرعيل الأول المؤسس رغم تدينه العميق الشديد لم يجد تنافسا بين ورعه الديني وبين تقبل سلوك الحكام وهو سلوك لم يكن في أي حال - فيما عدا الجهاد - متفقا كثيرا مع مبادئ الدين. كان اتفاق العلم والعمل عندهم يقتصر على المستوى الشخصي ولا يتعدى ذلك إلى المستوى الاجتماعي والقضايا العامة فلم يتحول الوبخ الخبيلى المتشدد مرة لجهالة النظام والفئات الحاكمة وبقى محصورا في نطاق السلوك الفردى لأصحابه وللمأس.

(١٣٩) ابن رجب - ذيل الطبقات ٢/ ٢٩٤.

والمروءة وقضاء الحوائج، وفي القناعة والزوف عن الدنيا... (١٣٦) وقد وصف بعض المتأخرين منهم بأنه «العالم القدوة» أو «الراهد القدوة» (١٣٧) فكأنهم كانوا يجسدون في ذلك كله مفهوم الدين عندهم، وتطبق المثل الدينية في الحياة ولعلنا لانسى أن هذا السلوك الجياني، بصرف النظر عن صدقه، كان أحد المعاصر في رأسا لهم من السمعة لدى الناس.

١٤ — ويتصل بالأمير السابق وينفع عنه موضوع العلاقة بين هذه الأسرة والأسرة المتصلة بها من جهة وبين الحكام وزملائهم العلماء من جهة أخرى. وقد كانت هذه العلاقة على الدوام حسنة وطيدة ونذر أن تمكث فلم تأخذ جنبيتهم طريق التعصب الحاد والعداء وتحريض الجميع الذي أخذته المواقف الحنبلية الغريبة في بغداد في القرنين الخامس والسادس. فاذا تجاوزنا مواقف الحسد والزحام على الوظائف التي تعرضوا لها أحيانا كثيرة فأبرز حوادث الخلاف التي وقعوا بها حادثتان: الأولى مشكلة الحفاظ عبد الغني بن عبد الواحد (المتوفى سنة ١٢٠٣/١٠٠) الذي تكلم في جامع دمشق في صفات الله وفي القرآن الكريم كلما رفضه الفقهاء وحلوا الملك العظيم عيسى والعصارم برغش والى دمشق على الغاء منبره التدرسي في الجامع فضايق بالأمير ومضى الى بعلبك ثم الى مصر ولكنهم هناك أيضا عادوا فضيقوا عليه ثم كلموا الملك العادل وأكثروا فكتب بإخراجه من مصر ولكن الحفاظ توفى قبل وصول

الكتاب (١٢٨٠)

(١٣٨) من الصعب احياء المصنفات التي تحدثت في صفات النادرة وكفى ان نثير الى بعضها في
مراجع واحد: انظر مثلا ابن رجب ذيل المطبقات ٢/ المصنفات ١٣٥/٩٤/٩٧/٩٥/٩٤/٩٢/٩١/٥٢
٣٣٣/٥٦٣/٤١٢٥/٢١٤/٢٣٥/١٨٥/١٣٣/١٣٥/٩٤/٩٧/٩٥/٩٤/٩٢/٩١/٥٢

وإذا بقي بعض المقادسة على مسافة معينة من الحكام ومن نظام الحكم

فإنما كان ذلك فقط في بعض رجال الأجيال الأولى ثم اندمج شيخ الأسرة في النظام المملوكي الاندماج الكامل. بل نلمح أحيانا نوعا من المسايرة غير المبررة للحكام في بعض القصص المروية حتى عن كبارهم الأوائل كالذي ذكره من أن أحد الشيوخ، أنكر على أبي عمر أنه يحطّ للملك المعادل وهو ظالم «فانسحب من الجامع لأنه ما حل خلفه صلاة» وقد برّر أبو عمر ذلك بحديث مروى عن النبي (ص) يقول: «ولدت زمن الملك المعادل كسرى» (١٤٤). ونسمع غمزا على الحفاظ جمال الدين عبد الله بن عبد الغني «باليل إلى السلاطين والانتفاع إلى الملك الصالح» وأصحاب الغمز قطبان من أقطاب الجنازة هما الناجح ابن الجليل وسبط ابن الجوزي (١٤٥). وقد ظهر في شيخ الأجيال التالية بعض القضايا غير المحمودين من الناس مثل شرف الدين أحمد بن الحسن حفيد أبي عمر المتوفى سنة ٧٧١ والذي «بأثر القضاء مباشرة لم يحمد عليها وكان عنده مدارة وحب للمصعب» «ولافح به صديقه بل شمت به عدوه» (١٤٦) ومثله تقى الدين سليمان ابن حجة المتوفى سنة ٧١٥ فقد ذكر الذهبي أنه «يجرى في أحكامه ما الله به أعلم والآفة من سبطه (ابن بنته) ولولا دخوله القضاء لعد من العلماء العاملين» (١٤٧).

١٦) تكثر أعداد آل قدامة في الصالحية جيلا بعد جيل وأحفاداً بعد أحفاد حتى صاروا مع القرون مجموعة واسعة من الأسر المميزة شكلت جانباً من الأرستقراطية الدينية - الاجتماعية فيها. وقد برزت منهم أولا «بيوت لها ذكر. مثل بيت أولاد الحفاظ (عبدالنبي) وأولاد المعاد وأولاد الشيخ أبي عمر ثم تفرعوا فكان منهم العديد من الأسر ويذكر ابن كنان قائمة طويلة بها في المروج السنية ومنها: بيت عز الدين، وبيت ناصر الدين، وبيت ابن

- (١٤٤) ابن رجب - ذيل الطبقات ٥٧/٢.
(١٤٥) ابن رجب - ذيل الطبقات ١٨٥/٢.
(١٤٦) القلائد ٣١٢/٢.
(١٤٧) ابن رجب - ذيل الطبقات ٣١٥/٢.

الأيوبي - المملوكي العام. وإذا لم يحفظ لنا التاريخ أسماء من تولوا المناصب الصغرى منهم فقد حفظ الكثيرين من تولوا الوظائف العليا. فكان منهم قضاة القضاة وشيوخ الإسلام في الشام خاصة وفي مصر ومن هؤلاء، بعد الرعيل الأول أكثر من عشرة شيوخ. منهم شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر محمد (توفي سنة ٦٨٢) وابنه شمس الدين أحمد بن عبد الرحمن (المتوفى سنة ٦٨٩) وشرف الدين الحسن بن عبد الله بن أبي عمر (توفي سنة ٦٩٥) وشهاب الدين أحمد بن حسن بن عبد الله بن عبد الغني (توفي سنة ٧١٠) وتقى الدين محمد (توفي سنة ٧٣١) ومحمد بن علي بن عمر (توفي سنة ٧١٥) ثم ابنه عز الدين محمد (توفي سنة ٨٢٠) ثم أخوه شرف الدين أحمد بن الحسن (١٤٢) (توفي سنة ٧٧١) هذا إذا لم نذكر أيضا بعض أقرابهم من القضاة المرادوية كقاضي القضاة جمال الدين يوسف بن محمد المرادوي (١١٣) (توفي سنة ٧٦٩).

وثمة غير هؤلاء أعداد ممن تولوا القضاء (على المذهب الحنبلي دوماً) والذين تصدروا للفتوى أو جلسوا للتدريس في مختلف المدارس في دمشق والقدس والقاهرة وبالس وبعلي بل وفي بعض البلدان الصغيرة حول دمشق مثل دوما والضمير. وبعضهم تولوا نظارة الأوقاف على المساجد ودور القرآن والحديث وعلى الزوايا والخوانق والمدارس كما عُيِّن الكثيرون لخطابة الجوامع وللإمامة وعينوا شهودا لدى القضاة ومعيدين وفي الفتاوى بالمدارس والجوامع وفي المشاركة (على المدارس) وتفرقة الرتبة (أجزاء القرآن في الجامع) وكتابة الفتيمة (مراقبة غياب الطلبة) والنظر (على خزائن الكتب) ومشيخة الزوايا... وما إليها.

- (١٤٢) أنسطر في تراجم التسعة الأوائل ابن رجب - ذيل الطبقات
٢/٢٩٤/٣٠٤/٣٢٢/٣٢٣/٣٢٤/٣٢٥/٣٢٦/٤١٥/٤١٨/٤٥٣ بالترتيب أما الأخيران فانظر في
ترجمتهما القلائد ٣١٩/٢ و ٣١٤/٢.
(١٤٣) انظر في تراجم هؤلاء القضاة الباقيين ابن طبرون - القلائد ٣١٩/٢ فما بعد.

في فنون شتى من بينها الطب أيضا فهو شديد الشبه في ذلك مع معاصره جلال الدين السيوطي. وفي فهرس كتبه المخطوط بيده ذكر حوال ٦٠٠ كتاب ورسالة من تأليفه وكانت مكتبته تقسم أكثر من خمسة آلاف كتاب، لكنه في هذا كله ابن نفسه أكثر مما هو ابن أسرته. ولأخيه أحمد شهاب الدين ذكر محدود ومؤلفات.. ولكن هؤلاء كانوا آخر المعهود..

أما ملايخ ضعف الأسرة فكانت قد بدأت منذ أوائل القرن الثامن ونجد الأمثلة عليها في تراجم بعض رجالها من أمثال أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن راجح سبط الشيخ أبي عمر والمتوفى سنة ٧١٠ والذي ذكروا أنه «حصل له انحراف وساء مزاجه فكان يقف في الطرقات ويشد أشياء مفيدة ويتكلم بجحد وهزل وله تلامذة في ذلك الحال ثم يثرب الى عقله ثم يعود لحالته وقيل: كان سبب ذلك أكل الحشيش» (١٠١٠).

ويذكرون عن رجل من كبار الأسرة في القرن الثامن (جمال الدين أحمد بن الحسن حفيد أبي عمر المتوفى سنة ٧٧١ ابن شيخ الجبل) أنه سخر القضاة لأهوائه و«لم تحمد مباشرته.. وكان عنده مداراة وحسب للمعصب» مع أنه كان قاضي القضاة وشيخ الجنبلة (١٠١٢) كما يذكرون عن قاض آخر من الأسرة نفسها بين القرنين التاسع والعاشر (ابن التقي المتوفى سنة ٨٢٤) أنه «كان عاريا من المعلم جدا ولسانه ثقیل جدا لا يكاد يفهم كلامه.. وقد تولى قضاء نابلس مدة طويلة ومعلوم القضاء هناك ضعيف جدا. وكان يطلب من النواب (نواب السلاطنة) وغيرهم.. وجاء الى دمشق وأقام بها.. بجامع (دنكن) وقيل انه كان ينتظر أن يحصل له منه شيء» (١٠٢٠) ووصف القاضي ناصر الدين ابن زريق

(١٠١) ابن رجب ٤٦٧/٢.

(١٠٢) القلائد ٣١١/٢ - ٣١٢ وابن رجب ٣١٥/٢.

(١٠٣) النعمي - الدارس ٨٧/٢.

زريق. وبيت القاضي سليمان وبيت ابن قاضي الجبل، وبيت شرف الدين، وبيت جمال الدين وبيت ابن مفلح، وبيت بني عبدالمادى وبيت المكشي وبيت البرد.. وبيت القاضي جمال الدين وبيت ابن الحب وبيت الحافظ ابن عبد الفتى « وغيرها (١١٧) مكرر.

١٧ انقطاع المقادسة عن التائق الواضح منذ أوائل القرن التاسع تقريبا وبينما كثرت أعدادهم أحفاداً بعد أحفاد كانت تراجمهم في الكتب تقصر وعطوهم في الدراسة والتأليف يقل وأوقافهم تنضام. ولا كانت المهنة والوظائف قد أضحت في تلك العصور وراثية في الأسرة كان المقادسة المتأخرون في معظمهم يرثون المناصب الدينية إرثاً وتقليداً ولا يبالونها نبلا. وكانت تعطى لتأريخهم وليس لمواهبهم وأصبحوا يتزاحون كالأخريين ومع الآخرين على الأوقاف والتدريس والامامة والاعادة والقضاء والفتوى ذلك الزحام الدنيوي العادي الذي كان يقوم به صفار أمراء الجند على الاطلاق في ذلك العصر. وأخذ يحل في تراجمهم لدى المؤلفين لقب قاضي القضاة أو القاضي أو المحدث (١١٨) بدلا من «العالم الزاهد» «وقطب الوقت» «والمسند الكبير» و«أمير المؤمنين في الحديث». وكان آخر الأسماء البارزة في الأسرة اسماعيل: واحد من أحفاد عمر بن أبي عمر هو محمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن الصالحي الذي عرف بابن زريق (١١٩) وهو من المحدثين الذين اشتغلوا بتاريخ رواة الحديث وقد توفي سنة ١٤٩٧/٩ أما الاسم الآخر والأهم فهو من فرع عبدالمادى في الأسرة وهو المؤرخ الأكثر جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبدالمادى. ويعرف بابن البرد. وكان فيه من ملايخ الجبل الأول البعد عن الدنيا والشدة في الدين وكره المناصب والانصراف للعالم والتأليف (١٢٠) وكان موسوعي الفكر تنوعت مؤلفاته

(١١٨) مكرراين كان الراجح ص ٦١

(١١٩) أنظر حلة لقب قاضي المقادسة مثلا لدى ابن رجب

٤٣٣/٤١٨/٤١٥/٣٨٤/٣٠٤/٢٩٤/٢

(١٢٠) شذرات ٣١٦/٧ السخاوي - القومو الاجمع ج ٧ ص ١٦٩.

(١٢٠) شذرات ٤٣/٨ وانظر مقدمة أسعد طلس كتابه ثمار القاصد.

صالح (١٥٥) (وقد توفي سنة ٦٩٩) كما انتعشت هذه الأجواء في الصالحية نفسها مع ابن عربى الصوفى الكبير الذى نعرف (والتوفى بها سنة ٦٣٨) ومع اليونينى وعروك وابن قوام، وعاشت أيضا وأيضا في قلب المدرسة العمريّة بالذات مع الزهاد الصالحين الذين كانوا يأتون إليها أمثال: الشيخ ربحان والشيخ صفى الدين وشمس الدين البينى وشهاب الدين المصرى، وأمين الدين ابن الكركرى (١٥٦) والشيخ خلف أحد الأبدال الذي كان يرى، فيما يروون في عرفة كل سنة وأن لم يسافر إل الحج.

وقد انتشرت في الصالحية ألوان الطرق الصوفية لكن أهمها كانت الطريقة الجبلانية فان قلبها الكبير عبد القادر الجبلانى (التوفى سنة ٥٦١) الملقب بالباز الأشهب كان حنبلياً. فما كادت تظهر هذه الطريقة سنة ٥٩٧/١٢٠٠ في بغداد حتى نقلها محمد البطائحي وتقى الدين اليونينى والبعليكي إلى الصالحية.

واحتذت الطريقة جاهير الجبلانية تدريجياً ولا سيما حين زال تأثير العلماء المقادسة الأوائل وبقيت منهم أصداء الزهد وحكايا الكرامات حتى إذا كانت أواخر القرن الثامن استطاع أبو بكر بن داود الجنبلى (التوفى سنة ٨٠٦) شيخ الطريقة وابنه عبد الرحمن (التوفى سنة ٨٥٦) أن يؤسسا الزاوية الداوودية. وبالرغم من مقاومة شيخ الجبلانية لبعده الله ومن الفتن التى وقعت بينه وبينهم فقد استطاع أن يجعل زاويته أعظم زوايا الصالحية وأكثرها نشاطاً وغنى وأوقافاً واتساعاً مريدين! وقامت بجانب الجبلانية الطريقة الرفاعية بجاهداتها الجسدية والجباوية والفنلندرية والشيبانية وغيرها ولكل مواكبها الموسمية ذات الأولوية والطبول ولها الاتباع والمريدون وبجلاس الأذكار. وتراجع الفكر العلمى الدينى وتراجعت المدارس في الصالحية لحساب التيار التصوفى المنتشر.. وليس من المصادفة أن تتراجع المدارس بدل أن تريد بينما تقام في القرن التاسع وعطالع الماشر ١٨ زاوية جديدة لأهل الطرق.

(١٥٥) انظر تراجم الشيخين لدى شذرات الذهب ٤٨٨/٥ و ٤٢٨.

(١٥٦) القلائد ١٨٠/٢ وأظفر كذلك ١ ص ١٧٥.

من أواخر القرن التاسع بالفساد والخراب والموارد الرديئة» (١٥٤).

وإذا عرفت الأسرة نوعاً من البقعة المتأخرة جداً بظهور الشيخ عبد الغنى النابلسى الصوفى المعروف فيما بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر (١٠٥٠- ١١٤٣ بدمشق) فقد كانت قبل ذلك قد اختفت في جو الغيبات الصوفية وهيمته رجال الطرق التي غلبت على الفكر الدينى والناس منذ القرن التاسع ثم سيطرت في العهد العثماني بعده...

١٨) توافقت جهود الجماعة المقدسية مع صعود وسيطرة التيار التصوفى على الأجواء الروحانية والاقبال على الفرق الصوفية في العالم الإسلامى السنى كله. يستوى في ذلك الطبقات الشعبية وشيوخ العلم ورجال الحكم. بينما سرت القناعة بأن العلم منته رباية «لأهل الله»، وحلت «المعارف الدنية» التى توهم الناس وجودها لدى أقطاب التصوف، ومعظمهم لم يكن له من العلم الا الحظ الضئيل، محل المعرفة المعينة بالدين والدراسة الحقيقية للعلم. وآمن الناس بقدمسية «المجازيب» والدرأوش وقد رآتهم الحارقة لأنهم أولياء بالخلفاء والتكويرين الرباني. وبينما كان ذلك يتم، كان تحول كامل يتم في مسيرة العلم بالصالحية مدينة العلم.

والواقع أن الصالحية لم تكن، بالطبع خارج هذه الأجواء لأنها جزء منها ومن بناها الاجتماعية - الفكرية ولعلنا نستطيع القول أيضا إن هذه الأجواء الزهدية التصوفية كانت قد نشأت، مع نشأة البلد الجديد ومع الحركة المقدسية نفسها. ولا تقصد أنها نشأت مع أبى عمر وأخيه وصهره فقط ولكنها نشأت أيضا مع الشيخ «الربانيين» الذين ظهروا ويؤكد حول الصالحية أيضا: من أمثال الشيخ جندل المعجمى في قرية منين (خلف جبل الصالحية وقد توفي سنة ٦٧٥) والشيخ رسلان التركمانى الجعبرى الدمشقى الذي سكن قرب مسجد أبى

(١٥٤) القلائد ١٧١/١ و ١٧٩.

الكيلاني والرافعي والبدوي في المشرق وأما لهم في المغرب فإن ما يهمنا هنا هو أن الناس بالنسبة للصالحية آمنوا - وحلهم الشيخ أيضاً على الأيمان بأنفسا مقرر بعض هؤلاء الأقطاب الذين لا تخلو منهم الأرض. وقد ذكر ابن عبد الهادي، أواخر القرن التاسع، قصة ممتدة عن هذه الأجواء هي قصة ذلك الرجل الذي جاء من بلاد بعيطة مؤمناً أنه لم يبق في الدنيا أحد من الصالحين الا في الصالحية وفي مدرسة أبي عمر بالذات ولا لس الشرور فيها نفس فلم يطعم بها رغبنا وبينما هو في الجامع الأموي ذات يوم ناداه شخص لا يعرفه باسمه واسم أبيه وأهله وأقبل بهزه من كتفه قائلاً: لا يا مسكين! لو دخلت من الصالحين لخسف بها. عندك منهم في الصالحية ستة وفي المدرسة ثلاثة وفي ضواحي الصالحية ثلاثة» وأغنى على الرجل فلما أفاق لم يجد لمن كلمه هذا الكلام أثراً... (١٥٦).

وما يرويه ابن طولون (وهو صالحي وقد توفي سنة ٩٥٣) قوله وكأنه يروي احدي الحقائق: «دولاً قصدوا الدوا دار أقيردى (في فتنه قامت بها ضد السلطان) بلغنا أنه وجاعته رأوا خيلاً من برزة الى البرية قد انتشرت فخاف ورجع عن ذلك. فسألنا هل عندكم هذه الخيول كلها في الصالحية؟ ولا والله ما نعلم ولا فرساً واحدة صعدت ذلك اليوم وإنما ظهر رجال مشاة. وبلغنا عن بعض جماعة أنه قال له: ما نشير عليك بالمسير اليها فانها محمية بالصالحين فرجع عن ذلك...» (١٥٧).

وهكذا بعد أن غاب أمثال القادسة الأوائل عن الصالحية جاء الاعتقاد العام ليحل محلهم الأقطاب غير الظاهرين ويشمل الأمل بأنهم موجودون... ولكن تحت أستار الله! وأن صالحية «الصالحين» ماتزال مقر الصالحين!

٦ - مدارس آل قدامة ورجال الأسرة:

قام الانجاز الذي قدمه القادسة في الصالحية على المدرستين العمريّة

(١٥٦) القلائد ٢/ ١٨٠ - ١٨١.

(١٥٧) انظر القلائد ٢/ ٣٨٠.

وندخر في خلفيتنا الفكرية المؤشرات العالية وتعمداتها الاقتصادية

السياسية التي عزلت منطقة الشرق العربي منذ مطلع القرن الماضي/ ١٥م، لتنضيف اليها أنه مع شيخ الغيبة الصوفية من الأيمان بالآولياء والكرامات الربانية والخوارق لأقطاب التصوف وسيطرة الطرق الصوفية بالمشرات على الممارسات الدينية في المشرق الاسلامي والمغرب على السواء، وفي المناطق الجديدة الاسلام من افريقية والمند وآسيا، فإن الصالحية بسبب من تراثها القديم في المقدسات ومن سمعة رجالها القادسة وغيرهم ومن الكرامات الدينية التي نالها دمشق خلال الحروب الصليبية ومن بعدها، أخذت حرمة خاصة وصارت لها حتى في أخيلة المتدينين البعيدين عنها حالة من البركة والتقدير شاع معه الاعتقاد أنه «ان بقي في الدنيا أحد من الصالحين فهو بها». وقد نقلت اليها من حلب مثلاً سنة ٦٧٠ رفات ابن قوام التوفي هناك سنة ٦٥٨ (١٥٧) وأقيمت له زاوية فيها وصار له المريدون والتابع وبينما تكاثرت في الصالحية أمثاله من شيخ الزهد والطرق. و «الدروشة» وتكاثرت الروايا والأربطة معهم وتحول اليهم الحبات والأوقاف كان الاعتقاد يتزايد بالمقابل، ومع فقد الشخصيات الدينية الكبرى، بأن «الأقطاب» أقطاب الأرض، الابدال المتصلين بالله، موجودون فيها ولكنهم يحتفظون بالسر الالهي لأنفسهم فهم في الظاهر من أصف خلق الله وفي الباطن حملة الأسرار الربانية والمكشوفون..

وكان هذا في الواقع جزءاً من التصورات الغيبية التي سيطرت على الأجراء الدينية مع تطاول العصر المملوكي وتفاقم المآسى التطبيقية وشروط النظم المسيطرة. كانت البنى الاقتصادية الاجتماعية، ومايزل بالناس من البلوى والجوانح الاقتصادية، والصحية، والسياسية هي التي تلمس مثل هذا التفسير لغياب القسم القيادية وانتشار الظلم والفساد والنعكات في الناس بغية اقامة التوازن الروحي والمادي في حياتهم العامة. وإذا كنا نجد الأمثلة على ذلك في بروز أسماء

(١٥٧) شذرات ٥/ ٢٩٦.

عزم المقادسة على عدم العودة وعلى الاستمرار حيث يقيمون من الجبل. ثم زاد الناس في المدرسة دون شك خلال القرن السابع زيادات لم تسجل. ولعل أهم زيادة كانت بعد ذلك في أواسط القرن الثامن على يد جمال الدين المرداوى (٧٠٠ - ٧٦٩) فقد بنى بناء كاملا شرق المدرسة وأضاف إليها رغم معارضة أولاد الشيخ ثم زادها أبو الفرج عبد الرحمن الفرائضي أحد أحفاد أبي عمر وزادها الأمير يلغيا الجيوى قبل أواسط القرن الثامن، ثم استمرت الزيادة فيها في القرن الثالث فقد بنى الأمير محمد بن منجك، أحد أمراء دمشق توسعة لها في شرقها ثم جاء شهاب الدين أحمد بن عبد الرزاق ابن زريق كاتب الديوان عنده (١٦٠٠) فوسّعها «بمدرسة جديدة» كاملة حوالى سنة ٨٤٠ «جاءت في غاية الحسن» حتى أصبحت العمرية في أواسط القرن التاسع مجعما مدرسيا يحوى ٣٦٠ خلية (غرفة) عدا المسجد والمساحات والأواوين والممرات والمصنع. وكانت الاضافة الأخيرة ساحة واسعة فيها بئر ماء و يدور بها خلاوى على ثلاث طبقات متصلة بالبناء القديم الذى كانت تقوم بعض خلاويه فوق سقف النهر. وكان فيه كذلك طبقات ثلاث من الغرف وصحن واسع وابوان. وكان الجنبانة يفخرون بأن لهم مدرسة طول البركة فيها مسيرة يوم لأن نهر يزيد الذى يمر بها طوله كذلك. (١٦١٠) وكان لكل جناح من الخلاوى فيها اسمه فهذا حارة المرادة وذلك حارة البقاعين (من أهل البقاع) وثالث حارة المعيان!!

ولاشك أن التوسع المطرد في البناء يعكس: تزايد الطلاب المستمر فيها كما يعبر عن استمرار دورها الريادى وتضاعفه حتى أواسط القرن التاسع على الأقل. ولا يعنى هذا أنها كانت تقوم بدور علمى خلاق بقدر ما يعنى أنها كُتبت النظام الفكرى التقليدى الذى وضعه مؤسوها الأ ولون .

وقد توقف التزايد البنائى في المدرسة منذ أواسط القرن التاسع. و يبدو

(١٦١٠) انظر القلائد ج ١ ص ١٦٩ حتى ص ١٧١ وانظر الدارس ١٠٥/٢ وص ١٠٦.

(١٦١) نجد الوصف التفصيلي للمدرسة بشيائها وأروقعتها والخلاوى والخزان بالتفصيل لدى القلائد ج ١ ص ١٨١ - ١٨٣.

والنضائية وعلى جهود مجموعة من العلماء. وبرغم ظهور ١٧ مدرسة في هذا البلد حتى أواخر أيام الأسرة القدامية أوائل القرن العاشر منها ست جنبايات فقد كانت هاتان المدرستان الحنبلتان في الطليعة سمة وأوقافا وثرا. وبرغم توافد الشيخ من مختلف المذاهب إليها فقد كان المقادسة الجنبالة بصورة عامة هم الأكثر عددا والأعمق صدق فترة لا تقل عن ثلاثة قرون ونصف القرن .

أولا - المدرسة العمرية :

هى المؤسسة التي قامت عليها نهضة المذهب الحنبلى في مابين القرنين السابع والعاشر ١٣ - ١٦ م وهى المدرسة الأم التي جمعت ووجهت جهود الشيخ المقادسة والجنبالة في تلك الفترة كما أنها البناء البراة الذي قامت من حوله بلدة الصالحية. وكانت تسمى بالشيخية وبالعمرية نسبة الى الشيخ أبى عمر.

وصف ابن عبد الهادى أواخر القرن التاسع هذه المدرسة بأنها «عظيمة لم يكن في بلاد الاسلام أعظم منها..» (١٥٨) وربما كان في هذا الوصف بعض المبالغة ولكنه على أى حال يكشف عظمة صورتها لدى الناس في فترة نشاطها وازدهارها. وقوام هذه «المظنة» أربعة أمور: سمة البناء وغنى الأوقاف وكثرة الشيخ والطلاب وضخامة المكتبة.

أ) البناء بدأ ببناء المدرسة، على يد أبى عمر على ضفتى نهر يزيد بأن: «عقد الشيخ النهر ثم بنى المسجد وبنى عشرة خلاوى (غرف) للقراءة عقداً على هيئة البلاد (نقط بناء المقيود في فلسطين كالأقبية) ووضع تحتها المصنع للماء» (١٥٩). ولا تذكر المصادر متى كان هذا البناء ولعله تم بعد تحرير فلسطين سنة ٥٨٣ وبعد

١١٧/٢ الدارس (١٥٨)

١٦٩/٢ القلائد (١٥٩)

من لم يحضر».

— ولما وقف للأطعمة اليومية وهي أطعمة رتيبة ومنها الجريشة في الشتاء وقد تنصرت في أيام الشيخ عبد الرحمن بن داود (القرن التاسع) ما بين قمحية وحب رمان ولبنية وغير ذلك ثم اقتصر على القمحية والعدس ليلة الجمعة ويطبخ لها في رمضان بلحم كل ليلة. ويطبخ لها ليلة العيد ثلاث أطعمة هريسة ورز حلو وطعام حامض. ولما أضحية في العيد الكبير تعطى لكل نازل بها. ولما وقف حلوى في المواسم (رجب وشعبان) وقف زبيب وقصامة كل ليلة جمعة. وحلويات أخرى في الليالي الفضيلة من رمضان. ووقف لتوزيع الزبيب سنويا على النزلاء.

— ولما وقف على قصمان كل سنة لكل نازل (وكان مستمرا حتى أواسط القرن التاسع).

— ولما أوقاف سراويلات، وبشوت. وفراء لكل نازل سنويا.

— ولما حصر لبورت المجاورين كل سنة وصابون.

— ولما وقف أطباق غسيل للقراء ودموت لطبخهم.

— ولما وقف أباريق للوضوء وسخانة يسخن فيها الماء في سائر أيام الشتاء والبرد للاغتسال. ووقف من الزيت للاضائة.

— ولما وقف على ختان من لم يكن مخونا في كل سنة من الفقراء والأيتام وهو عام في سائر فقراء الصالحية... (١٦٥)

يضاف الى هذا كله ما يدفع للشيخ من الأوقاف المبحوسة على دروسهم وقراءتهم فهناك وقوف لمختلف أنواع القراءات والدروس والأعمال المتعلقة بامامة المدرسة والنظر في شؤونها..

ويظهر مقدار ماتدر هذه الوقوف من كثرة الشيخ المتفيعين بها تتراحهم

(١٦٥) انظر القلائد ١٧٨/١ — ١٧٩ والمدارس ١١١/١ — ١١٢.

أنها بدأت في التراجع بعد ذلك ولا سيما بعد الاحتلال المشائي للبلاد سنة ٩٢٢ ودعاه للمذهب السني. وقد ذكر ابن طولون الذي عاش تلك الفترة انه (قد تعطل منها في أيامنا خلاوى كثيرة) (١١٢) وكان ذلك ايدانا بالتقصص والافتراض وما تزال أطلال هذه المدرسة قائمة وتحتفظ باسمها في الصالحية حتى اليوم.

ب (أوقاف المدرسة : كانت المدرسة نفسها اول وقف في هذه المؤسسة فقد وقفها صاحبها أبو عمر على تدريس القرآن ولفقه للحنابلة. وقد بدأت الأوقاف تجبس عليها في حياته ثم لم يزل الناس يوقعون عليها من رفته الى آخر عهدنا و«قل سنة من السنين قضى الا و يصير اليها فيها وقف. فوقتها لا يمكن حصره كما يقول ابن عبد الهادي (١١٢) حتى صار من كل أنواع البرطاء.. من جلته مثلا العشر من البقاع والمزب على داريا من القمح ستون غزارة ومن الدراهم خمسة آلاف للمغنم في شهر رمضان» قرر ذلك «السلطان الأشرف» (سيف الدين برساي ٨٢٥ — ٨٤١) ومنه دكاين تحت قلعة دمشق «ونصف حام الشيلة والجنينة» والبيت فوقه... الخ ونحن نجهل باقي الموارد الأخرى لأن المشرفين على الوقوف كان من عادتهم اخفاء وثائقها أملا في اندثارها ذات يوم أو خوف الطمع فيها ولكنها نستطيع أن نعرف ضخامة هذه الموارد وقوتها الوقفية الطويلة من النفقات التي كانت تترتب على تلك الأوقاف والتي استمر بعضها قرنين أو أكثر أو أقل ومن المعروف أن لكل وقف مورده الخاص فكان للمدرسة العمرية:

— وقف للخبز يفرق فيها كل يوم ألف رغيف أو نحوه على النزلاء وليس ثم من المدارس ما يفرق فيها من الخبز أكثر منها وهو مستمر طول السنة وفيها الرغيف المادي (الطلمة) والرغيف الكبير (طلمة ونصف) يبدأ النازل الجليل بطلمة ثم برغيف كبير ثم بطلمتين وللشيخ ثلاثة! ولما أمين يفرق الخبز وكانت غنية على

(١١٢) القلائد ١٨٣/١

(١١٣) المدارس ١١١/٢

(١١٤) القلائد ١٧٨/١ والمدارس ١١١/٢

الشرقية وآخر في الحزاة الغربية (وفي الحزائين مصاحف كثيرة موقوفة من أهل البس) وشيخ المدرسة يكون في الحراب. وعن يمينه وشماله شيخان آخران..» (وقد حفظ القرآن بها أم لا يحصون (١١٦)) ومن مشايخ الاقراء المشهورين الشيخ خلف الذي كان يعد من الأبدال ويقال انه كان يرى كل سنة بعرفة!

— وهناك قراءة السبع كل يوم بالايوان القبل يجتمع فيه خلائق يحنون القرآن فيه في كل أسبوع مرة، وهناك سبع بعد المغرب. وأسباع أخرى بدأت ثم انقطعت. — وهناك قراءة الشائين في المقصورة ولما شيخ مرتب يقرأ عليه كل من يقرأ فيها ولا تترك القراءة بها طول الليل..

— وكان بين بابي المدرسة شيخ يقرء القرآن والعلم على سائر المذاهب وعن يمينه وشماله مشايخ يساعدونه.

— وثمة دروس «منسوبة» (أى أنها باسم من بدأونها أو وقفوا عليها) ومنها درس ابن الحبال ودرس ابن قاضي الجبل ودرس ابن البيطار ودرس الأمير بكتمر (المتوفى سنة ٧٢٤) ودرس حلقة يوم الثلاثاء التي كانت محصورة في عشرة أو عشرين طالبا يطلون الفقه الحنبلي و يبالغون أوقاف الدرس على ذلك (وهو ريع نصف حام الشبلية والبيت فوقه).

— وهناك البرنامج الأسبوعي للدروس في الفقه الحنبلي: ولكل يوم من أيام الأسبوع شيخه المختص (١٧٠).

يمكن أن نقدر عدد النازلين في المدرسة، حسب معدل توزيع الجيز بالايقل عن ٧٥٠ أو نحو ذلك. وحتى في أواخر عهدا، (أيام ابن طولون في أوائل العهد العثماني) كان عدد النازلين لا يقل عن ٥٠٠ بين طالب وشيخ مقيم وصوفي زاهد (١٧١). وكان توزيع جلوس الشيخ في المدرسة للتدريس يتبع مقام الشيخ

(١٦٩) القلائد ١٧٥/١ — ١٧٦.

(١٧٠) انظر في ذلك القلائد ١٧٣/١.

(١٧١) القلائد ١٧٧/١ يقول ابن طولون: «ولا يزال مثزل فيها الخمسمائة ونحو ذلك».

في المرحلة الشانية خاصة من حياة المدرسة عليها.. وهذه الوقوف كانت تأتي خاصة من النواب والأمراء وكبار المستفيدين ومن التجار والملاكين والشيخ المرسرين كما تأتي أحيانا من الأفراد الماديين. وإذا كان معظمهم من الحنابلة فإن بعضهم - وبخاصة من الأمراء - كانوا يوقفون على المدرسة تدبنا واعجابا أو لأرب سياسية. على أن تدفق الأوقاف على المدرسة توقف منذ أواسط القرن التاسع على ما يظهر وقد تراقف معه وتلاه اضمحلال الأوقاف القديمة، تدريجيا وزوالها وكثيرا ما كان يبيعها أو يتاعها الشرفون عليها (ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن زريق المتوفى سنة ٨٠٣ (مثلا باع بعض أوقافها) (١٦٦)). وقد تدخل الحكام في النهاية في شؤون المدرسة بسبب اختلاف تطلرها وشيوخها وفي مطلع العهد العثماني بعد سنة ١٩٢٢ اشتمكي مستحقو المدرسة لثائب الشام جانردى النغزالي فأقام عليها «شربدار»... وقد اضمحل حالها في أيامه وصار لا يجزها الا في كل شهر مرتين أو ثلاثا وقد تهدم غالب خلاورها والباقي لا يسكنها الا الأكالون من تكية السلطان سليم بن عثمان (يقصد الفقراء والمتسكعين) (١٦٧)).

جـ (الدراسة والشيخ:

كانت الدراسة في المعربة تشمل القرآن والفتة الحنبلي خاصة ويتابعها في المدرسة طلاب العلم من جميع مراحل الحياة :

— فالأطفال، والكهوفون لهم «شيخ التلقين» يلقنهم القرآن وعمل في ذلك محمد بن أحمد بن مرجان العالم القدوة (توفى سنة ٧٧٤) (١٦٨).

— والكبار يعملون قراءة القرآن على عشرة من مشايخ الاقراء. واحد في الحزاة

(١٦٦) القلائد ١٧٨/١.

(١٦٧) السجلات ١٨١/١ وتكية السلطان سليم اقيمت بأمره تجاه جامع الشيخ محي الدين ابن عربي في

الصالحية وبترازا قائمة الى اليوم و يطبخ فيها «شوربة» أسبوعية للفقراء.

(١٦٨) القلائد ١٧٧/١.

لكنها كانت إذ ذاك قد بدأت مرحلة الأوفول.. كانت لها حرمة مستمدة من تاريخها وشيوعها وجلالة الملاء فيها وجديّة طلاب العلم ولكن ذلك الجو القديم انتهى الى الانحطاط.. وأحد نظارها في مطالع القرن التاسع (ناصر الدين محمد ابن زريق) «نقل عنه في حقها - على حد قول ابن عبد الهادي أحد رجال الأسرة القدامية - كلمات رديئة وأمر كفرية منها: قصدى اخراجها واضرب على بابها دفا ومسمارا. وكان يقول للأثرآك (الحكام والأمرآء المماليك) أنا عندي خمسمائة حرامي.. الى غير ذلك حتى كرهها الى الأثرآك وغيرهم.. وتساعد هو وغيره حتى كبست وضرب أهلها بعد أن كانوا بالمروء بالمروء و يتهون عن المنكر على كل أحد وكانت لهم حرمة قائمة..» (فكسرت حرمتها وفضح أمرها وكان عضده في ذلك قاضي الجنبالة النجف ابن مفلح) (١٧٦)...

د) مكتبة المدرسة :

يبدو من خلال الأخبار أنها كانت مكتبة ضخمة وقد نفت بما كان يهدى اليها و يوقف فيها من مختلف الواقفين والكتب و يبدو أنها كانت موزعة على قاعتين الخزانة الشرقية والخزانة الغربية وفي هاتين الخزانتين عدا الكتب مصاحف كثيرة. يضاف الى هذا «عدة خزائن للكتب الموقوفة من عدة أناس»:

يقول ابن طولون:

— «أعظمها كتب السيد الحسيني (ولم له شمس الدين محمد بن علي بن الحسين بن حمزة الحسيني (٧١٥ - ٧٦٥) صاحب الذيل على كتاب العبر للذهبي وقد جمع أشياء مهمة في الحديث وكتب واختصر بخطه الكثير من

الكتب (١٧٧).

(١٧٦) القلائد ١/ ١٨٠.

(١٧٧) انظر ترجمته لدى ابن كثير - البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ولدى ابن حجر وفي ضوء اللامع ١/ ٦١٤ وابن طولون الذي ذكر الخزانة لم يذكر اسمه وقد رجحنا أن يكون هو شمس الدين. وثمة احتمال آخر هو أن يكون المقصود هو أبا عبيد الله محمد بن الحسن بن عبد الله

ومكانته فبنيتهم من «يتصدر» ومنهم من يجلس الى يمينه أو شماله أو في الزاوية الشرقية أو الغربية. وللمدرسة إمام له مقامه الديني الكبير ولها ناظر (مدير) يتولى شؤونها (١٧٢) كما كان لها من الحرمه الشيء الكثير نتيجة لكل ذلك «بحيث انه اذا دخلها غريم لا يدخل أحد من ذوى الشوكة يأخذة ولو كان النائب (نائب السلطنة) وإذا جاء في نهرها قليل غسل ودفن من غير مشاورة...» (١٧٣).

وقد اضطرب أمر المدرسة في النصف الأول من القرن التاسع باختلاف شيخ الجنبالة عليها وسيطرة الطريقة الكيلانية على جواهرهم فتسلم ادارة المدرسة الشيخ عبد الرحمن بن داود شيخ الطريقة ونظمها التنظيم الطيب ولكنه أدخل عليها تدريس المذاهب الأربعة، بعد أن كان شيخ المدرسة (من نسل أبي عمس) يشورون ان سمعوا أحدا يهم بجنائزتهم وحدانية المذهب فيها. «وشق ذلك على الجماعة.. ووقع بسبب ذلك أمور وفن» «حاول الشباب ابن عبد الرزاق بن زريق حسمها باستصدار مراسيم سلطانية من مصر باخراج أصحاب المذاهب الأخرى منها» «فلما كانت المراسيم في الطريق مات فاستمر الأمر على ذلك..» (١٧٤).

وهكذا رتب للمشافعية درس في العمريّة، عند البئر، يتناول صاحبه تسعين درهما في الشهر ثم رتب للحنفية درس في الايوان القبلي، في اليومين المذكورين (١٧٥). وكان ذلك سنة ٨٤٧.

وبذلك تحولت العمريّة في أواسط القرن التاسع مدرسة لجميع المذاهب

(١٧٢) انظر في ذلك القلائد ١/ ١٧٧ و ١٧٩.

(١٧٣) القلائد وانظر كذلك ص ١٨٠ «أنا عندي خمسمائة حرامي».

(١٧٤) انظر في المصدر نفسه ١/ ١٧٤ و يتعلق عبد الهادي الحلي على ذلك بقوله «كان أكثر أصحابنا (الحسبية) يرون ذلك بلية وأما أنا لا يستوفي ذلك وأراه خيراً فان قفل الشيخ (أبي عمس) كان قاصراً على الجنبالة فعمدى اليهم والى غيرهم...».

(١٧٥) انظر المصدر السابق نفسه ١/ ١٧٤ - ١٧٥.

ثانياً : المدرسة الضيائية (دار الحديث الضيائية المحمدية)

وتسمى كذلك دار السنة . بناها وأوقفها ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد السمدى المقدسى شرقى باب جامع الخبابة (الظفرى) ولعل البناء كان قبل سنة ٦٢٠ بعد استقرار صاحبها في الصلحية وانتهاء اسفاره المديدة في طلب العلم وقد ذكروا أنه «بناها للمحدثين والفرباء الواردين مع الفقر والقلّة وكان يبنى منها جانباً ويصير الى أن يجمع معه ما يبنى به . و يعمل فيها بنفسه . ولم يقبل من أحد شيئاً تورعاً...» كما ذكروا أيضاً أنه قد «أعانه عليها بعض أهل الخبز...» (١٨٢) .

وكانت المدرسة تحوى مسجداً وخلوة (قاعة) للكتب وصحناً فيه بئر ماء ومن حوله خلاوى سفلية وعلوية وكان لها بابان أحدهما قديم هو القبلى (الجنوبى) والآخر جديد (الغربى) أحدث في القرن الثامن، أحدثه ابن قاضى الجبل (المتوفى سنة ٧٧١هـ) (١٨٣) .

ولم تكن المدرسة واسعة كالعمرية لأنها كانت مقصورة على دراسة الحديث النبوى والفقه وبيروها «شيخ دار الحديث»، الذى يقوم بالتدريس فيها ومعه مدرس للفقه وبعض المبدئين . ولكن أوقافها كانت على ما يظهر أوقافاً حسنة دارة: فهى تضم بين مناضمه: غالب دكاكين السوق الفوقانى (في الصلحية) وحوانيت وجبينة في النيرب وأرضاً بسمياً (أحدى قرى النوبة) ويؤخذ لأهلها ثلث قصح ضياع وقف دار الحديث الأشرافية، (وهى دار أخرى للحديث بالصلحية على حافة يزيد بناها الملك الأشرف مظفر الدين المتوفى سنة ٦٣٥هـ) وهى الدبر والدوير والمنصورة والتليل والشبرقية... (١٨٤) (من قرى النوبة التى درست) ولعل أهم مافى هذه المدرسة مكتبتها التى كانت تعرف بخلوة الكتب

(١٨١) أنظر القلائد ٨١/١ لم تذكر المصادر تاريخ البناء والدليل الوحيد الذى استرشدنا به هو أن الموقع عبد الله بن أحمد بن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠ وقف كتبه على هذه المدرسة .

(١٨٢) ابن رجب — ٢٢٨/٢ .

(١٨٣) القلائد ٨٣/١ وما تزال بقية هذه المدرسة موجودة وهى الآن دار ندعى بالصلحية وتستعمل لصلحة الجامع الظفرى ولم يبق من بناها الا اول سوى قوس ايوانها القديم .

(١٨٤) أنظر الدارس ٩٩/٢ والقلائد ٨٣/١ .

— «ومنها كتب الشيخ قوام الدين الحنفى» (وهو قوام الدين بن قاسم الملاى الحنفى) .

— «ومنها كتب الشمس البانىسى» (محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٢١هـ) (١٧٨) .

— «ومنها كتب المتحدث جال الدين يوسف بن عبد الهادى (المعروف بابن البرد المؤرخ المعروف ٨٤٠ — ٩٠٩م) وهى تزيد على خمسة آلاف كتاب ورساله فهرسها بنفسه في كتاب وقفها المحفوظ بخطه في المكتبة الظاهرية بدمشق (١٧٦) و يبدو من استعراض الفهرس أنها كانت تحوى طائفة نفيسة من الكتب جيدة النسخ وما كتب بخطوط العلماء المشهورين كالدهى وابن قيم الجوزية وابن الجوزى وابن رجب والجراعى وغيرهم .

— «ومنها كتب صاحب البدرى (صاحب ديوان الجيش «ولله ابن أبى بكر بن عبد الله ابن البدرى الدمشقى المؤرخ المتوفى سنة ٨٩٤) ويضيف ابن طولون في النهاية: «وفي هذه الكتب مصحف بخط الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه» (١٨٠) وقد أصبحت هذه المكتبة بنكيتين الأولى أيام قازان آخر القرن السابع والثانية في كارة تيمور أوائل القرن التاسع ونهبت كتبها وبيعت ولكنها استطاعت بعد كل من النكيتين أن تستعيد تكتبها الا أنها ما لبثت أن اضمحلت مع اضمحلال المدرسة وتوزعت الأيدى كتبها التى بقى بعض منها محفوظاً فيها حتى اجتمع في مطالع هذا القرن بين كنوز المكتبة الظاهرية بدمشق .

— الحسينى الواسطى (٧١٧ — ٧٧٦) وقد اشتغل في المدرسة الشامية الجوزية والبرانية وفي الصارمية وكتب الكبرى نسخاً وتصنيفاً بخطه الحسن . (ترجمه في الثغرات ٦/٢٤٤ ولدى ابن حجر في الدرر ٣/٤٢١ — ٤٢١ — وقد حسب صاحب الثغرات المتحفين شخصاً واحداً فكرر ترجمه الواسطى في سنة ٧٦٥هـ (ج ٦ ص ٢٠٥ — ٢٠٦) بدلا من ابن حوة .

(١٧٨) لا ترجمة صغيرة في مختصر تنبيه الطالب للملوك .

(١٧٩) ترجمه في الظاهرية (١٩) أدب وهو في ١٥٠ صفحة (١٢٢٠) مكتوب بخط دقيق متقارب السطور ويحوى ٦٠٠ كتاب من تأليف ابن عبد الهادى .

(١٨٠) أنظر القلائد ٨٣/١ .

منها شيء كثير» يقول ابن كثير سنة ٦٩٩ «وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس (الأرمي) في نهب الصالحية ومسجد الأسديّة ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرافية.. وجاء أكثر الناس إلى رباط الحنابلة - فاحتاطت به التتار.. ولا نكبت قتلوا.. ونهبوا.. ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري (والمدريّة) الضيائية وخزانة ابن البرزري (وهو أبو بكر منصور بن معنوق التاجر البغدادي المتوفى سنة ٦٩٤ وقد وقف كتبه على ترثه بجبل الصالحية). وكانت تساع وهي مكتوب عليها الوقفية» (١٨٧) «ثم تأملت (مكتبة المدرسة الضيائية) ورجعت إلى عهدنا الأول فأصابتها في نوبة تيمور سنة ٨٠٣ نكبة أخرى عاثلة، ضاعت أصدؤها في النكبة الأعظم التي شملت دمشق وجامعها الأموي ومع ذلك عادت المكتبة مرة أخرى لسهولة وقف الكتب ولكنها لم تعد لجدها الأول على ما يظهر بل جاء يوم تبددت فيه ثروتها من الكتب دون نكبة والمؤرخ ابن عبد الهادي (المتوفى سنة ٩٠٩) يعطينا تقريرا عن بدء انهيارها في عهده قائلا:

«...وكان بهذه المدرسة كتب الدنيا والأجزاء الحديثية (وكانت هذه الأجزاء من الأكثرية بحيث سعى ابن طولون مرة مع الشيخ موسى الكندي الحنيلي المشرف على خلوة الكتب في استعادة نحو ألفي جزء منها كانت على ما يظهر قد عدت عليها بعض المواد) و يضيف ابن عبد الهادي قوله: «حتى يقال أنه كان فيها خط للأئمة الأربعة وحتى يقال أنه كان فيها التوراة والانجيل. وكانت مضبوطة أيام خزنتها بنو الحب (١٨٨) و بعدهم صارت إلى القاضي ناصر الدين بن زريق الذي قال عنه أبو الفضل ابن حجر أنه ما رأى في بلاد الشام من يستحق اسم الحافظ غيره. وكان في أيام القاضي علاء الدين بن منفل (١٨٩) فاحتاج

(١٨٧) ابن كثير ٨/١٤
(١٨٨) بنو الحب هم أولاد عبد الله بن أحمد السدي ونسب منهم شمس الدين أبا بكر محمد بن عبد الله المعروف بالحب الصامت (٧١٢ - ٧٨٩) وشمس الدين محمد بن محمد السدي (٧٥٥ - ٨٢٨) ونسبهم في الدرر والشذرات.
(١٨٩) هو القاضي أبو الحسن علي بن محمود بن أبي بكر بن منفل الحنيلي الحافظ (ولد بحماة أو بسلمية سنة ٧٧١ وتوفي سنة ٨٢٨ شذرات ٨/٧ (١٨٥)).

والنواة الأولى للمكتبة صاحبها نفسه فقد أوقفها على الدار وكان مولها بالمكتبة «حصل كثيرا من المسانيد والأجزاء وحصل أصولاً نفيسة ففتح الله بها عليه هبة وشراء ونسخا.. وأكب على التصنيف والنسخ» «وكتب بخطه الكثير من الكتب الكبار وغيرها. ويقال أنه كتب عن أزيد من خمسمائة شيخ وحصل أصولا كثيرة» وقد وقف كل ذلك «بخزانة المدرسة الضيائية على اصحابهم الحنابلة» (١٨٥).

ثم توالى أوقاف الكتب على المدرسة فصار فيها كما يقول الصفدي:

— «من وقف الشيخ موفق الدين» (عبد الله بن أحمد القدامي المتوفى سنة ٦٢٠)

— و«البهاء عبد الرحمن» (هو أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد السدي ابن عم الضياء صاحب المدرسة ٥٥٥ - ٦٣٤).

— الحافظ عبد العزيز (ولعله عبد العزيز بن عبد الملك بن عثمان القدسي المتوفى سنة ٦٣٤).

— و«ابن الحاجب» (ولعله عثمان بن عمر بن أبي بكر الاسناني ٥٧٠ - ٦٤٦) أو العزيز بن محمد بن منصور الازمني المحدث المتوفى سنة ٦٣٠).

— و«ابن سلام» (ولعله الزركي المحدث محمد بن الحسن بن سالم الدمشقي المتوفى سنة ٦٣٠ وقد كتب الكثير وتوفى شابا فإطاعة والمشرين أو الحسن بن اسحق المتوفى سنة ٧١٧).

— و«ابن هامل» (وهو شمس الدين محمد بن عبد المنعم الحارثي ٦٠٣ - ٦٧١).

— و«الشيخ علي الموصلي» (ولعله عماد الدين علي بن يعقوب الموصلي المتوفى سنة ٦٨٢).

— و«الحافظ عبد الغني» (١٨٦) (وهو تقي الدين ابن عبد الواحد المتوفى سنة ٦٠٠).
و«قد نهبت المكتبة في نكبة الصالحية، نوبة قازان (سنة ٦٩٩) وراح

(١٨٥) انظر الصفدي - الروافى بالولايات - ج ٤ ص ٦٥ - ٦٦ وابن رجب ٢٣٧/٢ وابن كثير البداية والنهاية ج ١٦٩/١٣ - ١٧٠.
(١٨٦) السقلاند ٨٢/١ ومن المحتمل أن يكون الموصلي المتوفى سنة ٦١٤ (انظر شذرات ٥/٦) وانظر في تراجم الباقيين شذرات ٨/٥ و ١٣٨/١٤٠ و ١٦٨/١٤٤/٢٤٨/٢٤٤ و ٦ ص ٤٤.

أ — مدرسة الصاحبة وقد أقامتها شرقي الصاحبة سنة ٦٢٨ السبيرة ربيعة خاتون بنت أيوب شقيقة صلاح الدين (توفيت سنة ٦٤٣ وقد نيفت على الثمانين) وأوقفها على الجنبالة. ولم تكن الصاحبة جنبلية ولكنها قامت بذلك كرمي لصدقيتها العامة صاحبة المدرسة التالية. ومدرسة الصاحبة ما تزال الى اليوم قائمة وتحمل الاسم نفسه وتستخدم مدرسة رسمية وبنائها أكمل بناء حافظت الأيام عليه من مدراس الصاحبة. وكان من أوقافها غالب قرية جبة عسال والبستان الذي تحت المدرسة والطاحون المجاورة وغالب الجواكر المجاورة لها هناك (١١٢).

ب — مدرسة العامة أمه اللطيف بنت الشيخ الناصح الجبلي (توفيت سنة ٦٥٣) (١١٢) وقد تزوجها الملك الأشرف صاحب حصن وكانت شديدة الغنى. بقت مدرستها في غرب الصاحبة تحت جامع الأوفوم. وكان من أوقافها بعض بساتين القوطة وغياضها.

ج — المدرسة الضيقانية المحاسنية وهي الضيقانية الثانية وأوقفها صاحبها (١١٥) محاسن بن عبد الملك بن نجا التنوخي الجبلي التوفي سنة ٦٤٣ على من يكون أمير الجنبالة. وقد دثرت قبل القرن التاسع...

د — المدرسة الشيرازية وكانت شرقي مدرسة الصاحبة. وقد دثرت بدورها قبل القرن التاسع أيضا لأن رجال العلم في أواخر هذا القرن لم يكونوا يعرفون عنها أو عن المحاسنية السابقة أي خير (١١١)

رابعاً : شيخ القادسة :

مجموعة الشيخ القادسة الذين أطلعتهم الحركة العلمية الجنبلية لآل

- (١١٢) انظر الحديث عنها وعن مناقبها في القلائد ١ ص ١٥٦ فما بعد والدارس ٧٩/٢ فما بعد.
(١١٣) أورد ابن كثير ترجمتها مع ربيعة خاتون سنة ٦٤٣ وانظر اخبار مدرسة العامة في الدارس ١١٢/٢.
(١١٤) بجانب موقع وزارة الخارجية اليوم بدمشق.
(١١٥) انظر ترجمة الذي شذرات ٢٢٣/٥ وانظر حديث المدرسة لدى الدارس ٩٩/٢ والقلائد ١/١٦٤.
(١١٦) انظر القلائد ج ١ ص ١٦٤ حيث يقول عن الولىسالت شيخنا الجمال ابن البرد عموها فقال لا أعرفها ولها بالسنخ وص ١٦٥ حيث يقول عن الشيرازية: «وقد دثرت...».

القاضي علاء الدين الى كتاب الخلاف للقاضي أبي يعلى فقالوا له لا يوجد الا في الضيقانية فأرسل لطلبه منه فجمعه في قفتين وأرسله له.

«قالوا : فمن ثم انفرط أمرها وطمع الناس فيها.

ثم لما جاء قمر (لنك) وذهب زاد انفرط حالها.

فجاء ابن حجر وأخذ منها عدة أحال. (وهو ابن حجر المصقلاني).

ثم جاء الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين فأخذ منها.

«ثم جاء الحافظ قطب الدين الخيضرى فأخذ منها.

«ثم ان القاضي ناصر الدين ابن زريق الثاني استوصب أحاسن مافها» (١١٠).

وتابعت المكتبة اضمحلالها مع اضمحلال المدرسة خلال العهد العثماني

وقد أخذت مخطوطاتها الباقية في اواسط القرن الماضي فقصمت الى المدرسة العمرية التي كانت بدورها مضمحلة وتصرف النظار الجبهة بالكتب حتى جاء الشيخ طاهر الجزائري أواخر القرن الماضي فجمع بين ما جمع من مخطوطات الجوامع والمدارس في دمشق بقايا الثروة الخطية في المدرسة العمرية وأودعه في البناء الذي عرف فيما بعد بدار الكتب الظاهرية. وجانب هام من ثروة هذه الدار بالمخطوطات ما يزال بخطوط القادسة أو يحمل سماعتهم أو وقفهم عدا مافي المكتبات العامة منها.

ثالثاً : المدارس الجنبلية الأخرى في الصاحبة:

ما كان ممكناً أن تسطع المدرستان السابقتان دون أن تتركا في الجنبالة من الحماسة ماتنشأ معه مراكز علمية أخرى هامة. والواقع أن جهود العلماء الجنبالة عامة والقادسة معهم لم تكن محصورة في هاتين المدرستين فقد ظهرت ثمة أربعة مراكز علمية أخرى على أطرافها: وان تكن أقل شأنًا وأصيق أوقافا وثرا (١١١).

(١١٠) القلائد ٨٧/١.

(١١١) لتلاحظ هنا ان مدينة دمشق عرفت عدا مدارس الصاحبة فهذه ست مدارس جنبلية أخرى هي: الجزيرة والجاموسية والجنبلية والنجانية والصدية والمسامرية (راجع اخبارها لدى الدارس ٢ من ص ٢٩ الى ص ١٢٦).

بالزهد والفقه وبمعرفة الفرائض والجبر والمقابلة (٢٠٠).

- * فخر الدين علي بن أحمد بن عبد الواحد السمدى المقدسى (٥٧٥ - ١١٧٩/٦٩٠ - ١٢٩١) وقد عرف بابن البخارى لأن أباه تنقعه في بخارى وقد سمع الفخر بدمشق والقدس ومصر والاسكندرية وحض وحلب وبغداد. حدثت سنتين سنة واشتهر حين أعانه طول عمره على أن يصيح مسند عصره كله وتوافد طالبو الحديث عليه من أنحاء الدنيا يطلبون علو الاسناد. وهو الذي قال فيه الذهبي أنه آخر من كان بينه وبين النبي (ص) ثمانية رجال ثقات (٢٠١) وقد خرج له عدد من الشيوخ مشيخته.

- * عائشة بنت محمد الدين عيسى بن الموفق (٦١١ - ٦٩٧) المحدثه العابدہ وقد روت عن جدها وابن راجع وعدد من الشيوخ وروى عنها عدد من كبار المحدثين (٢٠٢).

- * تقي الدين سليمان بن حزة بن أحمد بن عمر القدامى (٦٢٨ - ٧١٥/١٢٣١ - ١٣١٥) سمع الشيخ بدمشق ومصر وبغداد وأصبهان حتى زاد شيوخه بالسماح والاجازة على ٧٠٠ شيخ وقد أفتى نيفا وخمسين سنة (٢٠٣).

- * محب الدين ابو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد السمدى المقدسى (٦٨٣ - ٧٣٧/١٢٨٣ - ١٣٣٧) ويعرف بابن الحب سمع عن نحو ألف شيخ وأكثر الناس من الثناء على علمه وفضله (٢٠٤).

- * شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد القدامى (٧٠٤ - ٧٤٤/١٣٠٤ - ١٣٤٣) وقد بيع في فنون الحديث ومعرفة الرجال وكتب من المؤلفات ما يزيد على ٥٨ كتابا بعضها في سبع مجلدات وبعضها في مجلد رغم انه اختصر شابا في الأربعين (٢٠٥).

- (٢٠٠) ترجمه في القلائد ٣٥٢/٢.
- (٢٠١) انظر ترجمتها في شذرات ٤٣٨/٥.
- (٢٠٢) ترجمتها في شذرات ٤٣٨/٥ والقلائد ٣١٠/١.
- (٢٠٣) انظر شذرات ٣٥٢/٦، الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٤١.
- (٢٠٤) انظر شذرات ١١٤/٦.
- (٢٠٥) راجع شذرات ١٤١/٦ الدرر ج ٢ ص ٤٢٢.

قدامة والذين برزوا حتى ذكرتهم كتب التراجم يزيد في العدد على مائة وخمسة عشر شيخا. منهم قرابة النصف من آل قدامة (أسرة أحمد وابنه أبي عمس) ولديها منهم ٥٤ اسما على الأقل. وحوالي الربع من بنى سرور بفرعيهم الشامي والنبلسي (٢٦ اسما) بالإضافة الى ١٤ اسما من آل عبد الهادي ١٢ اسما من آل عبد الواحد والباقي من أسرتي راجع والرداو بين. وتتضمن الاسماء بالطبع عددا من النساء المعالمات يزيد على العشر.

وقد وزعنا هؤلاء العلماء على أسرهم في أشجار النسب الملحقه بالبحث. وبالرغم من أن الحديث عن الكثير منهم قد ورد بشكل أو بآخر ضمن ماضى منه فقد يكون من تمامه أن نستعرض البارزين منهم بوصفهم بعض الامثلة. فهناك عدا الأربعة الاوائل: أبى عمر محمد بن أحمد، وتقى الدين عبد الفتى، والموفق عبد الله بن احمد والضياء محمد بن عبد الواحد:

- * عماد الدين (شقيق الضياء) ابراهيم بن عبد الواحد السمدى المقدسى (٥٤٣ - ٦١٤/١١٤٩ - ١٢١٧) درس في بغداد والموصل وحران بعد دمشق وبرج في علوم القرآن والحديث والنحو والفرائض. وذاعت عنه بعض الكرامات لزمه (١٧٥).

- * شمس الدين محمد بن ابراهيم هو ابن السابق. (٦٠٣ - ٦٧٦/١٢٠٦ - ١٢٧٧) وهو أول من ولي قضاء القضاة ومشيخة الشيخ من الجنبلة في مصر. وقد دفن فيها (١٧٨).

- * شمس الدين عبد الرحمن بن أبى عمر محمد القدامى (٥٩٧ - ٦٨٢/١٢٠١ - ١٢٨٤) درس على شيخ الشام وشارك في الجهاد وظل يحدث سنتين سنة وصار قاضى القضاة فترة ثم اعتزل وكتب عدد من تلاميذه في سيرته وشيوخه (١٩١).
- * شرف الدين أحمد بن احمد عبيد الله بن الشيخ احمد (٦١٤ - ٦٨٧/١٢١٧ - ١٢٨٨) سمع من الموفق عم أبيه وجده لأمه ومن عدد كبار المحدثين. عرف

- (١٩٧) ترجمته في شذرات ٥٧/٥ وابن رجب ٩٣/٢ والصفدي - الزاوي ج ٦ ص ٤٩
- (١٩٨) ترجمه في شذرات ٣٥٣/٥ وابن رجب ٢٩٤/٢ وابن كثير ١٣/١٣٧
- (١٩٩) ترجمه في شذرات ٣٧٦/٥ وابن رجب ٣٠٤/٢ وابن كثير ١٣/٣٠٢

١٣٩٤) سميع في دمشق ومكة ومصر وحلب وتنفرد ببعض شيوخه وسماعاته(٢١٠).

* شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن العز أحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي (٧٠٧ - ٧٩٨ / ١٢٠٨ - ١٣٩٦) ويشتهر بابن العز. سجع بككة والقدس ومصر و بغداد حتى كان العالم المفتي والمسند المكثر(٢١١).

* عمر بن محمد بن أحمد بن عبد الهادي (قتل في غزوة تيمور لدمشق سنة ٨٠٣) بعد أن عمر طويلا وصار عالي الاسناد(٢١٢).

* عائشة بنت شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي (٧٢٣ - ٨١٦ / ١٣٢٣ - ١٤١٣) المحدثة التي أفضحت في آخر عمرها أسند أهل الأرض ورحلة الدنيا. وأختها فاطمة كانت بدورها من المحدثات (توفيت سنة ٨٠٣ في غزوة تيمور)(٢١٣).

* شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن سليمان بن حزة (٠٠٠ - ٨٤١ / ١٤٣٧) وكان أفضى القضاة والمحدث العالم. اشتهر بابن ناصر الدين كما اشتهر بابن زريق. وذهب بالطاعون الذي شمل الشام سنة وفاته وصل مصر(٢١٤).

* جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبد الهادي (٨٤٠ - ٩٠٩ / ١٤٣٦ - ١٥٠٣) وهو من أشهر علماء هذه الأسر رغم تأخر عصره ومن أغزرهم انتاجا. أخذ عن جلة شيوخ عصره وشيخاته وتلمذ عليه الكثيرون ومنهم أولاده ومنهم ابن طولون الصالح. قضى معظم حياته في المدرسة العمرية ميسور الحال كرها للمناصب وكانت خزائن كتيبه تزيد على خمسة آلاف كتاب أما مؤلفاته فتزيد على ٦٠٠ كتاب ورسالة وتكشف أنه من أواخر الموسوعيين في التاريخ

- (٢١٠) انظر شذرات ٣٤٧/٦ والقلائد ٢٩٧/٢.
 (٢١١) انظر شذرات ٣٥٣/٦ والقلائد ٣٣٤/٢.
 (٢١٢) انظر شذرات ٣٣/٧ والقلائد ٢٨٧/٢ الفقه الامع ج ٥ ص ١١٥.
 (٢١٣) شذرات ١٢٠/٧ والقلائد ١٢٠/٧ والقلائد ٢٨٧/٢ الفقه الامع ج ١٢/٨١.
 (٢١٤) شذرات ٢٤٠/٧ الفقه الامع ج ٢/٧٤.

* ست العرب بنت محمد بن فخر الدين علي بن أحمد (البخاري) بن عبد الواحد السعدي (توفيت سنة ٧٦٧ / ١٣٦٥) وهي من المحدثات اللواتي أخذ عنهن كبار الحفاظ(٢٠١).

* شرف الدين احمد بن الحسن بن عبدالله بن أبي عمر (٦٩٣ - ٧٧١ / ١٢٩٤ - ١٣٦٩) حمل ألقاب جمال الاسلام، شيخ الخطابة وقاضى القضاة وعرف بابن قاضي الجبل. قرأ على ابن تيمية وعلى عدد كبير من الأئمة. بيع في الحديث والنحو واللغة والاصول والمنطق وحديث في مصر والشام ومع أنه لم يحدد في القضاة فقد كان من البرزين في العلم وله عدد من المصنفات.

* صلاح الدين محمد بن احمد بن ابراهيم بن عبدالله بن أبي عمر (٦٨٤ - ٧٨٠ / ١٢٨٥ - ١٣٧٨) أخذ الحديث عن عدد من كبار عصره في الحديث وعرف بالصلاح والصبر على السماع والاسماع وقد طالع به العمر حتى أضحى مسند وقته ورحلة عصره وهو آخر من كان بينه وبين النبي (ص) تسعة رجال ثقات بالسماع المتصل ولذلك توارد طلاب الحديث من كل مكان فلما مات قالوا: نزل أهل الاسناد بجوته درجة(٢٠٧).

* شمس الدين محمد بن المحب عبدالله بن أحمد بن المحب عبدالله بن أحمد بن محمد السعدي المقدسي (٧١٢ - ١٣١٢ / ٧٨٩ - ١٣٨٧) وقد اشتهر بالمحب الصامت رغم كرهه أن يدعى بذلك وهو حافظ كبير ومسند مكثر وزاهد من كبار الزهاد. سجع بدمشق ومكة والقدس ومصر و بغداد. وتنفرد بأكثر مسموعاته وصنف في الحديث أعمالا كثيرة(٢٠٨).

* شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عمر القدامي (٧٠٨ - ٧٩٤ / ١٣٠٩ - ١٣٩٢) وهو بدوره من المحدثين البارزين المكثرين(٢٠٩).
 * ناصر الدين محمد بن محمد بن داود بن حزمة القدامي (٧٠٨ - ٧٩٦ / ١٣٠٩ - ١٣٩٠)

- (٢٠١) شذرات ٢٠٨/٦ الدرر ج ٢ ص ٣٢٢.
 (٢٠٧) انظر شذرات ٢٦٧/٦ والقلائد ٢٩٤/٢ الدرر ج ٣ ص ٣٩٢.
 (٢٠٨) انظر شذرات ٣٠٩/٦ والقلائد ٣١٢/٢.
 (٢٠٩) انظر القلائد ٢٩٥/٢.

٧) نحو من التلخيص والتقرير :

ما من شك في أن آلا قديمة ومن ارتبط بهم من الأسر العلمية المقدسية قد تركوا في تاريخ القرون التي عاشوا، أثرهم الواضح العميق :

أ — فقد أسسوا مدينة علم، أقاموا لها بجهودهم وقادياتهم المستمرة مؤسساتها العلمية والاجتماعية كما منحوها مهمتها وودها ومواردها رزقها في تلك المعصور واستجلبوا إليها كذلك جهود وقاديات الآخرين فأدخلوها ضمن الخطوط نفسها التي رسموها وخلقوا في الصاحلية مجتمعا يعج بالحرارة العلمية بجانب حركته الاقتصادية والعمرانية.

ب — أسهموا على طريقتهم وبقدار جهودهم في إقامة المحمونات الدفاعية الروحية في الشرق العربي الاسلامي ضد القوى المكسحة له من الغرب (الصليبيين) ومن الشرق (المغول) وذلك بتكوين وعميق الروح الدينية في الناس. وكان العلم أحد جوانب العملية الدفاعية التي اصطنعها الحكام والناس في الشرق الاسلامي للحفاظ على هويته الحضارية العربية الاسلامية.

ج — أسهموا على طريقتهم أيضا في خدمة الفكر الديني الاسلامي، باعطاء طوقه التقليدية حيوية جديدة وأجيالا جديدة من العلماء والشيخ وقد انصب ذلك خاصة على علم الحديث. وكانت جهوتهم تشكل جانبا من حملة رسالته.

د — قاموا بدور اساسي في اشاعة المذهب الحنبلي ونشره في بلورة الفقه الحنبلي وتنظيمه. وكان هذا المذهب مضيقا عليه، في بغداد خاصة لما كان يلاقي من النزاع والخضومة فأقاموا له في دمشق مركز اشباع جديد يقوم على أساس من التعاضد مع المذاهب الأخرى. وبهذا الشكل أنقذوا المذهب عمليا من الاندثار وأعطوه نهضة جديدة لم تنشره في الشام قطط ولكنها مهدت لامتداده أيضا الى نجد والى ظهوره في ثوبه الجديد على يد محمد بن عبدالوهاب. وإذا امتد تأثيرهم وتأثير مذهبهم الحنبلي في المدى الزمني عدة

الاسلامى. وفي المكتبة الظاهرية الكثير من مخطوطاته بخطه وفيها كتب التوحيد والجدل والحديث والفقه والقوى والتاريخ والتراجم واللغة والآداب والطب. وهو أول من وضع تاريخ الصاحلية (٢١٥).

* ولا بد أخيرا من أن نضيف اثنين من المتأخرين في الأسرة القدامية المقدسية ولكنهما تفردا في عصرهما وكانا أشبه بالقطعة في الأسرة:

١ — عبد الجليل بن محمد بن عبد الهادي العمري (دمشق ١٠٥٥ هـ - المدينة ١٠٨٧) وقد اشتهر بالفلك وله رسائل عديدة في هذا العلم منها: الربيع الجامع في الفلك والربيع المتعطر في الهندسة. وتغيرها وكان في الوقت نفسه سالكا سبيل التصوف وتوفي وشيكا في الحج وهو ما يزال في عز الشباب (٢١٦).

٢ — عبد الغنى بن اسماعيل بن عبد الغنى بن اسماعيل بن أحمد الحنفي النقيبى القادري (ولد سنة ١٠٥٠ بدمشق وتوفي بها سنة ١٦٤٣/١١٤٣ هـ - ١٧٣١) وهو من كبار المتصوفة (على الطريقة الجبلانية) اشتهر عدا التصوف بالفقه والتفسير والأدب وله عدد من المؤلفات وقد زار جاعيل في رحلته المروقة وكتب: «وقد زنا في تلك القرية ديار أجدانا بنى قدامة الذين هاجروا من تلك البلاد لا.. أخذ الكفار بيت القدس» وقال :
بجماعين دار بنى قدامة سقى جنباتها صوب الفخامة
وهم بالصاحلية من دمشق جدوى يعرفون بنى قدامة !
وعلى قبره اليوم، جامع يعرف باسمه في شرقي الصاحلية ما يزال معمورا.

ايصالهم مرتبة أصحاب الكرامات الربانية والأحوال والمعجزات! ولقد عاون المقادسة في ذلك كله على توطيد وترسيخ البنى الاجتماعية — الاقتصادية لتلك المصور وعلى اعطائها اشكالا التي استمرت حتى مطلع هذا القرن الحالي.

ولاشك أن مما ساعد آل قدامة على ذلك كله أنهم كانوا يمثلون عصورهم وأن الجبو الثقافي — الروحي مع توالي النكبات الصليبية والغولية كان يتطلب هذا النوع من النشاطات العلمية الاجتماعية ومن البنى الدفاعية فهم أبناء ذلك الجو وهم صانعوه في وقت واحد. وعلى أي حال فقد كان هؤلاء المقادسة شيئا هاما في تاريخ الشام، ومن خلاله في التاريخ الاسلامي. ولا نكاد نجد في تاريخ الشام هجرة قروية استطاعت أن تترك مثل ذلك الأثر الفخيم في السعة وفي الزمن وفي العمق وفي النوع كذلك الأثر الذي تركته هجرة آل قدامة المقادسة الى دمشق .

قرون فقد امتد في المكان من الصالحية الى دمشق فصار لهم محراب في جامعها ودروس مستقرة، والى بلدان أخرى حولها مثل دومة والفسير. وبعليك والى قراهم في جاعيل والى نابلس والقدس ومصر والاسكندرية والى حران واربيل وبغداد.

هـ — شاركوا المشاركة الواضحة في زيادة التراث الفكري الاسلامي وفي حفظه بما ألفوا من مئات الكتب الهامة وبما كتبوا بخطوطهم وما حفظوه منها. وقد ألفوا في المجموع ما يصل الى ألف كتاب ورسالة، كما جمعت مكتباتهم وحفظت ألوف الكتب التراثية مما سمح ببقاء الكثير منها الى اليوم.

و — شاركوا بوضوح في عمليات التعليم والتربية حيثما وجدوا من البلدان والقرى وعلى امتداد القرون التي برزوا فيها. وإذا كان النهج التعليمي — التربوي في تلك المصور دينيا كله فقد وهبه في الواقع خير الأشر من أعمارهم وتبخر الجهود وعلموا الأطفال والكبار وكان لهم من الخير والمثرة أنهم لم يعلموا المرأة فقط ولكن دفعوها أيضا الى التعلم حتى كان من نسلهم العلماء وحاملات ألقاب العلم.

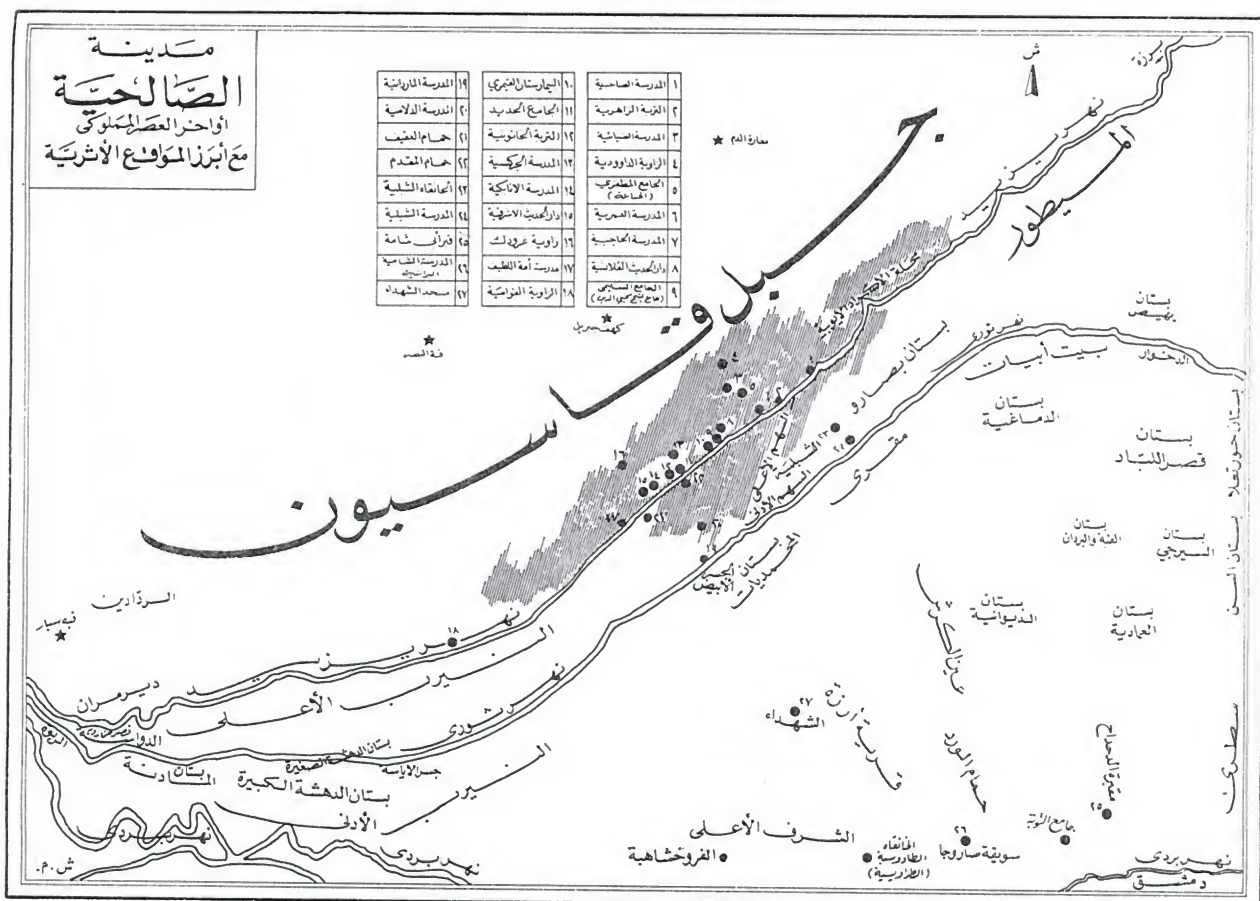
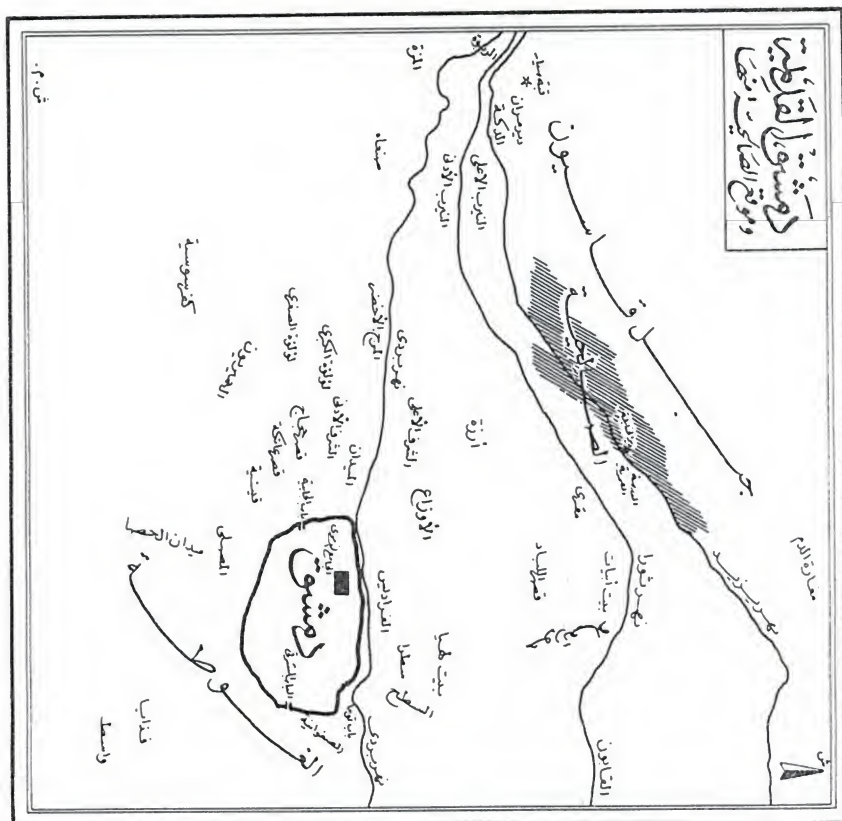
ز — اسهموا في الحياة القضائية والادارية والدينية للمصريين الأيوبي والملوكي بما تولوه من المناصب الرسمية والدينية وما قدموه من أبناء أسرهم المديدين لتلك المناصب وقامت نتيجة تقواهم وعلمهم، أحسن الصلات في الغالب بينهم وبين الطبقات الحاكمة (من جند وعلماء وتجار وملاكين) التي قدمت لهم بدورها أحسن الدعم والاحترام.

ح — وأخيرا فقد أسهم المقادسة، على مستوى السلوك الاجتماعي، في إشاعة النمذج المثلى للانسان العلم والتقوى با عرف عنهم من الورع حتى البكاء ومن الزهد وكثرة العبادة ومن التعمق في الدين قرآنا وحديثا وفقها... وكانوا في الوقت نفسه أمثلة في الجمع بين العلم والعمل. وقد تقل الاحترام الشديد لهذه النمذج في رعاية الحكام لهم ومنحهم المناصب الدينية والايوقاف وفي مبالغته الناس في تكريتهم ومنحهم المبات والوقوف، وفي الخروج بعشرات الألو في جنازتهم وأخيرا في تصعيد ذلك كله لدرجة

اللاحق

قدامة بن مقدام بن نصر بن عبد الله الجماعلي المقدسي







• منظر عام لموقع جماعين حالياً والهضاب الممدودة حولها - قضاء نابلس

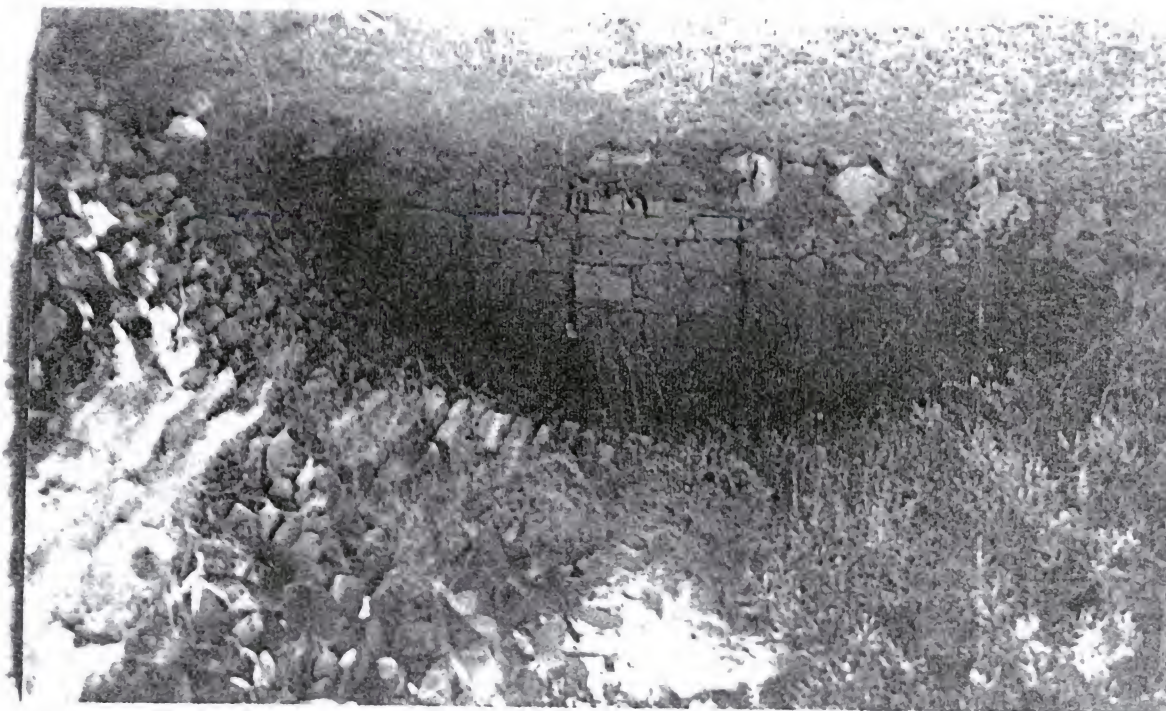
تنويه

الصور التالية المرفقة مع هذا البحث، هي مقدمة من الدكتور
إحسان صدقي العمدة الذي يقدم له المؤلف أجل الشكر
الأخوي.



• دار آل قدامة - القدس الداخلي من الخارج وقد تصدع بجذور الشجر

• دار بني قدامة في جماعتين لم يتبق فيها سوى هذا القوس وقد طمرت من الداخل



(٢٠) ابن عبد الهادي

عدة الملمات في تعداد الحمامات — نشر صلاح الدين الميبد — مجلة

المشرق، العدد ٤١ لسنة ١٩٤٧ (ص ٤٠٩ — ٤٢٠)

(٢١) ابن عساكر (علي بن الحسن سنة ٥٧١)

تاريخ مدينة دمشق (تحقيق الميبد ج ١ وقسم ١ ج ٢) ط. المجمع العلمي
بدمشق سنة ١٩٥١ و سنة ١٩٥٤

(٢٢) الملموي (عبد الباسط بن موسى سنة ٩٨١ هـ)

مختصر تنبيه الطالب (تحقيق الميبد) دمشق ١٩٤٧

(٢٣) ابن العماد الحنبلي (عبد الحلي بن أحمد سنة ١٠٩٨ هـ)

شذرات الذهب، بيروت، المكتب التجاري د. ت

(٢٤) القلقشندي (أحمد بن علي سنة ٨٢١ هـ)

صبح الاعشى (ط. القاهرة، ١٩١٣ — ١٩٢٢) تصوير القاهرة ١٩٧٢

(٢٥) ابن كثير (اسماعيل بن عمر المتوفى سنة ٧٧٤ هـ).

البداية والنهاية، بيروت، دار مكتبة المعارف ١٩٦٦.

(٢٦) ابن كنان (محمد بن عيسى سنة ١١٥٣ هـ)

المروج السندسية الفيجية في تلخيص تاريخ الصالحية. تحقيق محمد احمد

دهان (ط. مديرية الآثار — دمشق ١٩٤٧).

(٢٧) مجير الدين الحنبلي (عبد الرحمن بن محمد سنة ٩٢٨ هـ)

الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (ط. عمان — بيروت سنة ١٩٧٣)

(٢٨) المحيي الدمشقي (محمد أمين بن فضل الله سنة ١١١)

خلاصة الأثر (ط. القاهرة سنة ١٢٨٤ — تصوير بيروت).

(٢٩) المقدسي (أحمد بن محمد سنة ٧٦٥)

مثير الغرام بفضائل القدس والشام — يافا ١٩٤٦

(٣٠) النعمي (عبد القادر بن محمد سنة ٩٢٧ هـ)

المدارس في تاريخ المدارس (تحقيق جعفر الحسني) ط. المجمع العالمي —

دمشق ١٩٤٨

(١١) ابن زفر الأربلي (الحسن بن أحمد سنة ٧٢٦)

مدارس دمشق وربطها وجوامعها (تحقيق محمد احمد دهان)

ط. دمشق ١٩٤٧

(١٢) سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزوين سنة ٦٥٤)

مرآة الزمان (الجزء الثامن) حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية،

المند ١٩٥١.

(١٣) السخاوي (محمد بن عبد الرحمن سنة ٩٠٢)

الضوء اللامع (ط. القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦) تصوير بيروت، دار مكتبة

الحياة د. ت

(١٤) ابن شاكر/الكتبي (محمد بن شاكر سنة ٧٦٤)

فوات الوفيات، بيروت، دار صادر، د. ت

(١٥) ابو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل سنة ٦٦٥)

كتاب الروضتين — ط. القاهرة — مطبعة وادي النيل سنة ١٢٨٨ هـ).

(١٦) ابو شامة

ذيل كتاب الروضتين (تحقيق الكوثري) تصوير بيروت دار الجليل ١٩٧٤

(١٧) ابن شداد (عز الدين محمد بن علي سنة ٦٨٤)

الاعلاق الخطيرة (تحقيق سامي الدهان) قسم دمشق، ط. المعهد الفرنسي

بدمشق ١٩٥٦

(١٨) ابن طولون (محمد بن علي الصالحي سنة ٩٥٣)

القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية — تحقيق محمد احمد دهان

ط. دمشق ١٩٤٩).

(١٩) ابن عبد الهادي (جمال الدين يوسف بن حسن سنة ٩٠٩)

تسار المقاصد في ذكر المساجد (تحقيق أسعد طلس — طبع مكتبة لبنان سنة

١٩٧٤)

the city, but, unfortunately, it disappeared and all that we have been left with, is a shortened version of the book prepared by Mohamad Ibn Issâ Ibn Kannan, under the title of: Al-Mourouû As-Soundussiyya al-Faseeha (or Al-Fayhiyya) Fi Târikh As-Sâlihyya), which was also published in Damascus in 1947.

The present paper is an attempt to study this unique phenomenon with which the history of a learned family of about four centuries - a history that constitutes part of the history of Arab Islamic thinking in Ash - Shâm - (Syria), during the Mamluk epoch.

(٣١) الهروي (علي بن أبي بكر سنة ٦١١)

الإشارات إلى معرفة الزيارات. (نشر المعهد الفرنسي — تحقيق

جانين سورديل — تومين — ط. دمشق ١٩٥٣).

(٣٢) الألفاعي (عبد الله بن أسعد سنة ٧٦٨)

مرآة الجنان (ط. حيدر أباد سنة ١٣٣٧ هـ) تصوير بيروت سنة ١٩٧٠

(٣٣) ياقوت الحموي (سنة ٦٢٦)

معجم البلدان، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٠٦ (تصوير بيروت).

ثانيا المراجع الأجنبية :

(مع ترجمته العربية بقلم الباز العربي)

1 - Eliséff. N. «(Damass) art. Enc. Is.

2 - Grousset R. H. des Croisades, Plon Paris 1934.

3 - Ruciman S. H. des croisades, Cambridge, university pres, 1968

4 - Sauvaget, J. «(Damass)

— سوفاجيه (ترجمة فؤاد أفرام البستاني).

(بيروت ١٩٣٦) بعنوان : (دمشق الشام لحق تاريخية).

The "Qudāmas" and "As-Sālihiyya,"

A learned Family and a Learned Town

The "Al-Qudāma" is a family of a Palestinian origin, emigrant and active in Damascus, and Hanbalit in denomination, who left a distinct influence on the history and men of Islamic thought during the Mamluk epoch. This influence was manifested in the family's numerous learned members - "Ulamā", and their unflinching intellectual activities over several centuries, from the middle of the sixth Hijra century to the beginning of the tenth century (12-16 A.D.)

The family took as a base for its cultural activities a place near Damascus, which was to be called "As-Sālihiyya." Here, the Qudāmas built houses and founded the early schools - "Madrasa-s". Soon, this small place developed into a small town and, immediately afterward into a big town bustling with thought and culture as well as learned people. In the Mamluk epoch, there were scores of schools, mosques, Zāwiyas (Sufi's monasteries) ; Turba s (mausoleums); Khanka s (convents) and Takiya s (charity houses). There, hundreds of learned men lived, and became prominent, and hundreds of others came on visits. All this took place, hand in hand with economic and social activities. The emergence of "as-Sālihiyya" was indeed a historic event in the development of Damascus; topographically, demographically, economically as well as culturally.

Among the outstanding families in Islamic history, the Qudāmas, with other related families, might rank high in the number of its learned members (more than 115 men and women over a period of three and a half centuries), and in their well-known contribution.

And among the scores of cities, known to have been built during the course of Islamic history, and of which some researchers counted three hundred, scattered all over the Islamic World, hardly any other city, except "As-Sālihiyya", was established by learned - men, and specialised primarily in knowledge and learning. The history of the "Qudāma's" family has not, however, been thoroughly researched, although biographical studies have carried many a report on the family's famous people. The history of "As-Sālihiyya", itself, has not, as yet, been studied through a modern, up-to-date structural approach, although, back in history, Mohamad Ibn Touloun, wrote a book entitled "Al-Qalā'id Al-Jawhariyya fi Tārikh As-Sālihiyya," (Literally: The Genuine Necklaces in the history of As-Sālihiyya,) published 32 years ago in Damascus, on the history of As-Sālihiyya's places and important men.

Before Ibn Touloun, Ibn Abdul Hâdi, had written a book on the history of

The Autor

Dr. Shaker Mustafa

Ph. D. in Islamic History, Geneva, 1971.

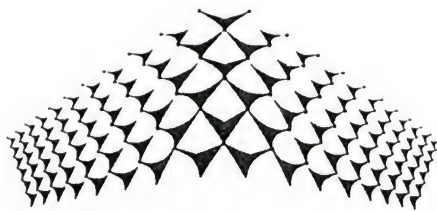
Professor of Islamic History, University of Kuwait.

Publications:

Among his 26 publications in History and Literature are:

Historiography and Arab Historians.

- Banu Al'Abbas State. Historiographs of the Saljuqid and Ayyubid Epoch. (in French).
- Among his 625 essays and Historical Studies are:
 - Taghlegin, the 1st. Atabeg. Popular movements in Damascus (4th to 6th / 10 to 12 Centuries).



مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

FOURTEENTH MONOGRAPH

**THE "QUDAMAS"
AND "AS-SALIHYYA"**

Dr. SHAKER A. MOUSTAFA

Department of History - Kuwait University

Annals Of The Faculty Of Arts

Volume No. 3, 1982

Editorial Board

Abdulla Al-Ghoneim
Nagat Al-Qenaili
M. S. Abulezz
Fouad Zakaria
Saeed Ashor

Director of Editorial Board
Chief Editor

Price of the Monograph

400 Flis \$ 2 in Kuwait

Subscription :

For individuals : K.D 2.000 in Kuwait, U. S. \$ 20.00 in all other
Countries (by air).
For institutions : K.D 10 per year in Kuwait.
U. S. \$ 40.00 in all other Countries (by air)
50% Special discount for Faculty & Students

Mail all communications, including publishing conditions and
Subscriptions to

Editor,
ANNALS OF THE FACULTY OF ARTS
P. O. Box : 26585 - KUWAIT.

ANNALS OF

THE FACULTY OF ARTS

Issued by the Faculty of Arts, Kuwait University

A SCIENTIFIC PERIODICAL COMPRISING
SEVERAL AUTHENTIC MONOGRAPHS ON TOPICS
RELEVANT TO THE FIELDS OF PHILOSOPHY,
HISTORY, SOCIOLOGY, GEOGRAPHY AND
PSYCHOLOGY.

Volume No. 3, 1982